

الإسلام

دين التيسير

تأليف
صالح أحمد الشامي

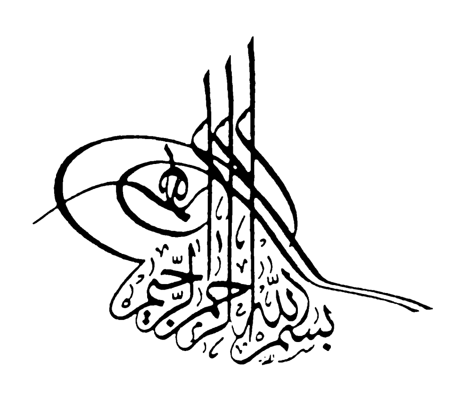
المكتب الإسلامي

الإسلام

دين التيسير

بقلم
صالح أحمد الشامي

المكتب الإسلامي


بسم الله الرحمن الرحيم


الإسلام
دين التيسير

الطبعة الأولى
١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

المكتب الإسلامي
بيروت : ص.ب : ١١/٣٧٧١ - هاتف : ٤٥٦٢٨٠(٠٥)
دمشق : ص.ب : ١٣٠٧٩ - هاتف : ١١١٦٣٧
عمّان : ص.ب : ١٨٢٠٦٥ - هاتف : ٤٦٥٦٦٠٥

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً فيه، وأفضل الصلاة وأتم التسليم علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلىٰ كل من دعا بدعوته إلىٰ يوم الدين.

وَبَعْد:

فإن الإسلام هو الدين الذي رضيه الله تعالىٰ لعباده، وأقامه لهم علىٰ قاعدة واسعة من التيسير، رحمة بهم، وتخفيفاً من المشاق عنهم.

فهو القائل ـ سبحانه ـ في كتابه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهو القائل: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ [المائدة: ٦].

وهو القائل: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ﴾ [النساء: ٢٨].

وهو القائل: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقد أخذ هذا «التيسير» مكانه في أصول الشريعة وفروعها علىٰ حد سواء، الأمر الذي جعله سمة ثابتة من سمات هذا الدين، وهو ما عبّر عنه الرسول الكريم ﷺ بقوله: (إن هذا الدين يسر).

وقد بيّن الدكتور يوسف القرضاوي مكانة «التيسير» في هذا الدين. بقوله: «التيسير روح يسري في جسم الشريعة كلها، كما تسري العصارة في أغصان الشجرة الحية، وهذا التيسير مبني علىٰ رعاية ضعف الإنسان، وكثرة أعبائه وتعدد مشاغله، وضغط الحياة ومتطلباتها عليه، وشارع هذا الدين رؤوف رحيم، لا يريد بعباده عنتاً ولا رهقاً، إنما يريد لهم الخير والسعادة..

إن هذا الدين لم يجئ لطبقة خاصة، أو لإقليم محدود، أو لعصر معين، بل جاء عاماً لكل الناس، في كل الأرض، وفي كل الأزمان والأجيال. وإن نظاماً يتسم بهذا التعميم وهذه السعة، لا بد أن يتجه إلىٰ التيسير والتخفيف، ليسع كل الناس، وإن اختلف بهم المكان والزمان والحال.

وهـذا مـا يـحسـه ويـلـمسـه كـل مـن عـرف هـذا الدين»[1].

ومع كل الوضوح الذي حملته تشريعات هذا الدين بشأن التيسير، فإن فريقاً من طلبة العلم المبتدئين ـ وهم قلة ـ لم يستوعبوا هذا الأمر، فأخذوا أنفسهم بالشدة فقهاً وعملاً، وحكموا علىٰ الناس من خلال مفهوم ضيق، فانطبق عليهم قوله ﷺ: (لقد ضيقت واسعاً يا هذا؟!)[2].

وقد حذر النبي ﷺ من هذا المسلك، فقال: (لا تشددوا علىٰ أنفسكم فيشدد عليكم، فإن قوماً شددوا علىٰ أنفسهم، فشدد الله عليهم، فتلك بقاياهم في الصوامع والديار ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧])[3].

وهذا رسول الله ﷺ يقف في يوم من الأيام بين

---

(١) «الخصائص العامة للإسلام»، للقرضاوي ص(١٧٧) مؤسسة الرسالة.

(٢) رواه أبو داود (٣٨٠) بلفظ: (لقد تحجرت واسعاً).

(٣) رواه أبو داود (٤٩٠٤).

أصحابه ـ مغضباً أشد الغضب ـ فيقول: (أيها الناس، إن منكم منفرين..).

إنه أمر خطير أن يكون المسلم منفراً من الإسلام، بقوله أو فعله، وهو لا يدري بخطورة عمله أو قوله.

وهذا ما استدعىٰ غضبه ﷺ، وكان لا يغضب إلا إذا انتهكت محارم الله تعالىٰ.

فما قصة هذا الخطاب الذي وجهه ﷺ لأصحابه؟.

جاء في «الصحيحين»، عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله! إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان، مما يطيل بنا فيها.

قال أبو مسعود: فما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذ، فقال:

(أيها الناس، إن منكم منفرين، فأيكم ما صلىٰ بالناس فليخفف، فإن فيهم الكبير والضعيف، وذا الحاجة)[1].

---

(١) رواه البخاري (٩٠، ٧١٥٩)، ومسلم (٤٦٦).

توقفت طويلاً عند قوله ﷺ: (أيها الناس، إن منكم منفرين. .) وأنا أقرأ هذا الحديث الشريف. .

ونظرت في الواقع من حولي، فإذا المنفرون كثيرون كثيرون.

منفرون بأقوالهم.

ومنفرون بأفعالهم.

ومنفرون بوجوههم العبوسة.

ومنفرون بنظراتهم للآخرين.

ومنفرون بتعاليهم علىٰ الناس.

ومنفرون بطعنهم بعقيدة الآخرين لأتفه الأسباب.

ومنفرون ومنفرون.

والحديث عن المنفرين طويل. . يستحق الوقوف عنده طويلاً، ولكنه ليس موضوع حديثنا.

كان غضبه ﷺ من فعل إمام أطال الصلاة، حتىٰ شق ذلك علىٰ المصلين، لأن هذا الفعل يتعارض مع الخط العام الذي جاء به الإسلام من التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إنه يتعارض مع قوله تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] ولذلك كان غضبه ﷺ.

لقد وعىٰ الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ هذا الدرس في فقه التيسير وأحسنوا التعامل معه.

جاء في «سنن الدارمي» قوله: حدثنا عثمان بن عمر، أخبرنا ابن عوف عن عمر بن إسحاق قال: «لَمَنْ أدركتُ من أصحاب رسول الله ﷺ أكثر مما سبقني منهم، فما رأيت قوماً أيسر سيرة، ولا أقل تشديداً منهم»[١].

إن فقه «اليسر» في هذا الدين أمر ضروري.

وهو ضروري لطالب العلم قبل غيره من الناس.

ولما لهذه المسألة من مكانة في التعريف بهذا الدين الحنيف، وبيان جانب من خصائصه ومزاياه، رأيت أن أتناول هذا الموضوع بالبحث. من خلال فصول مختصرة، لا تمل القارئ. ولكنها تضع بين

---

(١) «سنن الدارمي»، رقم (١٢٦).

يديه الخطوط العريضة التي تبين حدود الموضوع وخارطته.

والله المسؤول، أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً له، إنه سميع مجيب، وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

غرة جمادىٰ الأولىٰ ١٤٢٥هـ
١٩/٦/٢٠٠٤م

كتبه

صالح أحمد الشامي

الفصل الأول

تيسير القرآن للذكر

قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: ١٧].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي سهلنا لفظه، ويسرنا معناه، لمن أراده، ليتذكر الناس كما قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [صٓ].

وقال في «صفوة التفاسير»: «قال الخازن: وفيه الحث علىٰ تعليم القرآن والاشتغال به، لأنه قد يسره الله وسهله علىٰ من يشاء من عباده، بحيث يسهل حفظه للصغير والكبير، والعربي والعجمي. قال سعيد بن جبير: يسرناه للحفظ والقراءة، وليس شيء من كتب الله تعالىٰ يقرأ كله ظاهراً إلا القرآن».

القرآن كتاب الله تعالىٰ، وهو دستور هذا الدين الحنيف، ولا بد للمسلم أن تكون صلته قوية بكلام

ربه تعالىٰ. ومن رحمته تعالىٰ أن يسر هذه الصلة، وهيّأ من الأسباب ما يجعلها وثيقة مستمرة.

ومن ذلك: أن المسلم ـ سواء أكان قارئاً أم غير قارئ ـ يصلي كل يوم خمس صلوات، القراءة في ثلاث منها جهرية يستمع فيها المصلي إلىٰ الإمام وهو يقرأ الآيات الكريمة، فهي صلة يومية مستمرة.. وكذلك صلاة الجمعة يستمع المسلم إلىٰ القرآن الكريم في خطبتها وفي صلاتها..

فهذه الصلة هي الحد الأدنىٰ الذي يسره الله عن طريق تشريع الصلاة، وهو أمر ذو بال، له نتائجه المثمرة.. حتىٰ رأينا المسلم الأمي الذي لا يقرأ ولا يكتب إذا أخطأ الإمام في القراءة، صحح له هذا المسلم الخطأ، وما ذلك إلا نتيجة للإلف المستمر.

ومن أسباب تيسيره: حفظ الله تعالىٰ له من التغيير والتبديل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر] فهو نص كريم ثابت لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فليس هناك في كل مدة من الزمن طبعة جديدة معدلة عن التي قبلها..

إن هذا الحفظ كفيل بتيسير هذا الكتاب العظيم، حيث ينتقل من الأب إلىٰ الابن.. وهكذا فهو ثابت محفوظ.

ومن التيسير: أن الله ﷻ يسر فهمه للناس، فهو قريب المتناول من المتعلم، ومن غير المتعلم، من الرجل ومن المرأة، من الكبير ومن الصغير، كل بحسبه.

وهذا واقع مشاهد، وهو من جملة وجوه الإعجاز في هذا الكتاب الحكيم.

قال تعالىٰ: ﴿كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١﴾ [هود] فهي محكمة في لفظها، مفصلة في معناها، فهي كاملة صورةً ومعنىً، وما كان كذلك فإنه سيكون ميسراً للفهم ولا شك في ذلك.

ومن التيسير في هذا الكتاب الكريم: أنه آياتٌ يفسر بعضها بعضاً، ويؤكد بعضها بعضها الآخر، في تناسق كامل، فلا تعارض بين الآيات، ولا اختلاف بين آية وأخرىٰ، وهذا الأمر مما يساعد علىٰ الفهم.. وهذه سمة في الكلام لا تكون إلا لكلام الله تعالىٰ. وهذا ما نصت عليه الآية الكريمة من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَوۡ

كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفٗا كَثِيرٗا ﴿٨٢﴾ [النساء].

ومن التيسير: أن المسلم مكلف بما جاء في القرآن من الأوامر أن يعمل بها، وما جاء فيه من النواهي أن يبتعد عنها، وآيات الأمر والنهي من الوضوح بمكان بحيث يفهمها كل إنسان، وفي هذا الاتجاه جاء التوجيه النبوي الكريم في قوله ﷺ: (انظروا الذي أمرتم فاعملوا به، والذي نهيتم عنه فانتهوا)[١].

ومن العوامل التي جعلها الله وسيلة لتيسير هذا القرآن: أنه جعل الثواب العظيم علىٰ قراءته، فثواب قراءة الحرف الواحد منه عشر حسنات، كما روىٰ ذلك عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)[٢].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢/١٩٦).

(٢) رواه الترمذي (٢٩١٠).

إن هذا الثواب العظيم دفع المسلمين إلىٰ الحرص علىٰ التلاوة كلما أتيح لهم ذلك، ومن هنا أصبحت الصلة قوية ومستمرة بين المسلم وبين كتابه، وهذا من أكبر المساعدات علىٰ تيسير القراءة، وتيسير الفهم.

وخلاصة القول: أن الله تعالىٰ يسر القرآن تلاوةً وفهماً وتعلماً..

كما أن القرآن الكريم حمل اليسر والتيسير ورفع الحرج في كثير من آياته، وفي كل مجالات الحياة، كما سوف نشاهد ذلك في الفصول التالية إن شاء الله تعالىٰ.

الفصل الثاني

منهج التيسير في السنَّة

(إن هذا الدين يسر)[1] هذا ما قاله الصادق المصدوق ﷺ، وهو بهذه الكلمة ـ التي هي من جوامع الكلم ـ ينبه علىٰ سمة من السمات الأصيلة في الدين، فهي تنتظم الكليات فيه والفروع.. فكل تعاليمه وكل أوامره قائمة علىٰ أساس من التيسير ورفع الحرج عن الناس..

وهذا الحديث لا يمكن أن يصدر إلا عن صاحب الرسالة ﷺ، فهو أعلم الناس بهذا الدين، ولذلك يستطيع أن يصفه بالوصف الدقيق والصحيح.

يضاف إلىٰ ذلك ما جرىٰ عليه العمل منه ﷺ،

(١) رواه النسائي (٥٠٤٩)، ورواه البخاري (٣٩) بلفظ: (إن الدين يسر).

فقد كان حريصاً علىٰ الأخذ بالأسهل والأيسر من الأمور.

قالت عائشة رضي الله عنها: «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس منه»[1].

ولا يكتفي ﷺ بهذه القواعد العامة التي سنّها بقوله وفعله، بل يؤكد ذلك في أقوال له كثيرة، تذكيراً للناس بهذا الخط العام في المنهج الإسلامي ومن ذلك قوله ﷺ: (يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا)[2].

وقوله ﷺ: (ألا أخبركم بمن يحرم علىٰ النار ـ أو بمن تحرم عليه النار ـ علىٰ كل قريب هين سهل)[3].

وقوله ﷺ: (ومن يسر علىٰ معسر، يسر الله عليه في الدنيا والآخرة)[4].

وكان ﷺ يراعي في أوامره، الابتعاد عما فيه المشقة علىٰ المسلمين. ومن ذلك قوله ﷺ: (لولا أن

---

(١) رواه البخاري (٣٥٦٠)، ومسلم (٢٣٢٧).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

(٣) رواه الترمذي (٢٤٨٨).

(٤) رواه مسلم (٢٦٩٩).

أشق علىٰ أمتي، لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة)[1].

فالمانع له من أمرهم علىٰ طريقة الوجوب، أن في ذلك مشقة عليهم، ولذلك لم يفعل.

ومثل ذلك قوله ﷺ: (لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم أن يصلوها هكذا)[2] وكان ذلك عندما تأخر يوماً في صلاة العشاء، حتىٰ نام بعض القوم. فالمانع له ﷺ من التزام ذلك الوقت المتأخر، هو التيسير علىٰ الناس.

وأوضح مدة هذا التأخير بقوله: (لولا أن أشق علىٰ أمتي لأمرتهم أن يؤخروا العشاء إلىٰ ثلث الليل أو نصفه)[3].

ومن ذلك قوله ﷺ: (ولولا أن أشق علىٰ أمتي ما قعدت خلاف سرية..)[4].

والأحاديث في هذا كثيرة، لو سردتها لطال

---

(١) رواه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

(٢) رواه البخاري (٥٧١)، ومسلم (٦٤٢).

(٣) رواه الترمذي (١٦٧)، وابن ماجه (٦٩١).

(٤) رواه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦).

الفصل، ولكنها جميعاً تؤكد أمراً واحداً هو قصده ﷺ إلىٰ التيسير علىٰ الناس، والبعد عما يشق عليهم..

وهكذا تكرر منه ﷺ قول: (لولا أن أشق علىٰ أمتي)، إن عدم المشقة أمر مقصود، كان ﷺ يراعيه في أوامره.

وفي بيانٍ لواقع عملي تقول عائشة رضي الله عنها: «صنع رسول الله ﷺ أمراً فترخص فيه، فبلغ ذلك ناساً من أصحابه، فكأنهم كرهوه وتنزهوا عنه، فبلغه ذلك، فغضب حتى بان الغضب في وجهه، ثم قام خطيباً فقال: (ما بال رجال بلغهم عني أمر ترخصت فيه فكرهوه وتنزهوا عنه، فوالله لأنا أعلمهم بالله وأشدهم له خشية)[1].

وهكذا غضب ﷺ، وما كان ليغضب لولا خطر هذه الظاهرة في الميل إلى التشدد.

تلك نماذج عامة، مما جاء عنه ﷺ في القصد إلىٰ التيسير علىٰ الناس، وتأكيد أن ذلك من مقاصد هذا الدين، بل هو وصف من أوصاف هذا الدين.

---

(١) رواه البخاري (٦١٠١)، ومسلم (٢٣٥٦).

الفصل الثالث

التيسير مقصود في التشريع

كثيرة هي النصوص التي تبين أن «التيسير» مقصود في التشريع، وفي ذكر بعض النماذج منها ما يجلي ذلك ويوضحه.

● فقد جاء في حديث أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قوله: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تعالىٰ فرض فرائض فلا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدوها، وحرّم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة لكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها)[1].

قسم هذا الحديث أحكام الله تعالىٰ إلىٰ أربعة أقسام: فرائض، ومحارم، وحدود، ومسكوت عنه، وذلك يجمع أحكام الدين كلها.

---

(١) رواه الدراقطني (٤٣٩٦) قال ابن رجب: حسنه النووي، وكذلك حسنه قبله أبو بكر السمعاني في «أماليه»، وانظر: «فتح الباري» (١٣/ ٢٦٦).

قال ابن رجب الحنبلي:

«قال أبو بكر السمعاني: هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين وفروعه.

قال: وحكىٰ عن بعضهم أنه قال: ليس في أحاديث رسول الله ﷺ حديث واحد أجمع بانفراده لأصول الدين وفروعه من حديث أبي ثعلبة.

قال: وحُكي عن أبي واثلة المزني أنه قال: جمع رسول الله ﷺ الدين في أربع كلمات ثم ذكر حديث أبي ثعلبة، ثم قال ابن السمعاني: من عمل بهذا الحديث فقد حاز الثواب وأمن من العقاب، لأن: من أدىٰ الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود، وترك البحث عما غاب عنه، فقد استوفىٰ أقسام الفضل وأوفىٰ حقوق الدين لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث»[١].

- فالفرائض: ما فرضه الله علىٰ عباده وألزمهم القيام به، كالصلاة والزكاة.

---

(١) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب، عند شرح الحديث (٣٠)، الناشر مكتبة الباز ـ مكة.

- والمحارم: هي ما نهىٰ عنه ومنع من الاقتراب منه، كالشرك، والفواحش، والربا.

- وحدود الله: هي التي نهىٰ عن تعديها، فالمراد بها جملة ما أذن في فعله، سواء كان علىٰ طريق الوجوب أو الندب أو الإباحة، واعتداؤها: هو تجاوز ذلك إلىٰ ارتكاب ما نهىٰ عنه، كما قال تعالىٰ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا﴾ [البقرة: ٢٢٩].

- وأما المسكوت عنه: فهو ما لم يذكر حكمه بتحليل ولا إيجاب ولا تحريم. وهذا يكون معفواً عنه لا حرج علىٰ فاعله.

ويظهر أمر التيسير في التشريع بهذا الحديث من جانبين.

الأول: هذا الوضوح الذي لا مثيل له في أقسام التشريع.

والثاني: ما جاء في الفقرة الأخيرة منه، وهي (وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها).

إن هذه الفقرة تبين بوضوح: أن ما سكت عنه،

فإنما كان ذلك عن قصد، رحمة بالناس، وسيراً بهم في طريق التيسير عليهم.

ويؤكد هذا المعنىٰ، ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (ما أحل الله في كتابه فهو حلال، وما حرمه فهو حرام، وما سكت عنه فهو عافية، فاقبلوا من الله عافيته، فإن الله لم يكن لينسىٰ شيئاً) ثم تلا هذه الآية: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾﴾ [مريم][1].

ومن هذا المنطلق كان الصحابة رضي الله عنهم لا يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم خوفاً أن يكون المسؤول عنه من هذا القسم الذي سكت الله عنه.

وقد روىٰ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (إن أعظم المسلمين جرماً، من سأل عن شيء لم يحرم، فحرِّم من أجل مسألته)[2].

فهذه الأحاديث تؤكد أمراً واحداً، وهو أن الله سبحانه بيَّن بعض الأحكام وسكت عن بعضها بقصد

---

(١) «تفسير ابن كثير» عند الآية الكريمة المذكورة، وقد أخرجه الحاكم (٢/ ٣٧٥) وقال: صحيح الإسناد.
(٢) رواه البخاري (٧٢٨٩)، ومسلم (٢٣٥٨).

التخفيف علىٰ العباد، وتقريراً لقاعدة التيسير في هذا الدين، وبناءً علىٰ ذلك:

«فقد استقر في قواعد الأصول بأدلة شرعية كثيرة: أن الأصل في الأشياء الإباحة، وكلام الإمام أحمد يدل علىٰ أن ما لم يدخل في نصوص التحريم فإنه معفو عنه»[1].

* * *

• ومما رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قوله: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: (أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج، فحجوا).

فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟.

فسكت النبي ﷺ حتىٰ قالها الرجل ثلاثاً.

فقال رسول الله ﷺ: (لو قلت: نعم، لوجبت، ولما استطعتم) ثم قال: (ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم، واختلافهم علىٰ أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء، فائتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه)[2].

---

(١) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (٢/ ٥٠٠).

(٢) رواه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧) واللفظ له.

وهذا الحديث يقرر خط التيسير من وجهين:

الأول: أنه يؤكد ما جاء في الفقرة السابقة من قضية النهي عن الأسئلة التي قد تكون سبباً في فرض ما لم يفرض، أو تحريم ما لم يحرم.

والثاني: ما جاء في الفقرة الأخيرة من قوله: (إذا أمرتكم بشي..).

فإن هذه الفقرة تقرر أن التشريع: أمر ونهي.

والنهي: أمر بالامتناع عن القيام بالعمل، وهو أمر في مقدور الإنسان أن يفعله ولذلك طلب منه أن ينفذه بتمامه، فالمناهي لا يعذر أحد بارتكابها، ولذلك جاء قوله ﷺ جازماً: (إذا نهيتكم عن شيء فدعوه) وفي رواية أخرىٰ: (فاجتنبوه). والاجتناب والترك أمر يستطيع الإنسان أن يقوم به كاملاً.

وأما **الأمر**: فهو قيام بعمل، وهنا: قد يكون بعض الناس قادراً علىٰ القيام به كاملاً، وقد يكون بعضهم غير قادر علىٰ ذلك، فطلب منه القيام بقدر طاقته وهذا معنىٰ قوله ﷺ: (فائتوا منه ما استطعتم) أي: كل بحسب قدرته وإمكاناته.

وهذا من غاية التيسير: أن يطالب الإنسان بحدود طاقته.

قال ابن رجب: «والتحقيق في هذا أن الله لا يكلف العباد من الأعمال ما لا طاقة لهم به، وقد أسقط عنهم كثيراً من الأعمال بمجرد المشقة رخصة عليهم رحمة لهم، وأما المناهي فلم يعذر أحد بارتكابها..»[1].

وهكذا يصب هذا الحديث أيضاً في تقرير خط التيسير.

* * *

● ومن التيسير المقصود في التشريع، إتاحة الاجتهاد في فهم النص، وقبول الرأيين معاً.

وهذا ما حصل في غزوة بني قريظة، كما روىٰ ذلك ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ لنا لمَّا رجع من الأحزاب: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة) فأدرك بعضهم العصر في الطريق.

فقال بعضهم: لا نصلي حتىٰ نأتيها.

---

(١) «جامع العلوم والحكم»، لابن رجب (١/ ١٥٣).

وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك.

فذكر للنبي ﷺ، فلم يعنف واحداً منهم[1].

كان الصحابة ﷺ أمام قوله ﷺ: (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة).

فلما أدركتهم صلاة العصر في الطريق، انقسموا فريقين.

فقالت الطائفة الأولىٰ: لا نصلي إلا في بني قريظة تنفيذاً لقوله ﷺ.

وقالت الطائفة الأخرىٰ: لم يرد ﷺ منا أن نؤخر صلاة العصر عن وقتها، وإنما أراد منا الحث علىٰ الإسراع، وصلاة العصر في وقتها لا ينافي تنفيذ الأمر بشأن الإسراع.

وهكذا صلىٰ بعضهم في الطريق، وصلىٰ بعضهم بعد وصوله إلىٰ بني قريظة، وقد خرجت الصلاة عن وقتها.

فلما ذكر ذلك للنبي ﷺ لم يعنف واحداً من الفريقين.

---

(١) رواه البخاري (٩٤٦)، ومسلم (١٧٧٠).

ومما يلفت النظر أنه ﷺ لم يصوِّب أحد الفريقين، ولم يقدم اجتهاده علىٰ اجتهاد الفريق الآخر. بل ترك الأمر دون بيان، وهذا يعني قبول الرأيين علىٰ حد سواء.

وفعله هذا سنة متبعة، تعني فيما تعني: أن أحد الاجتهادين لا يكون حجة في نقض اجتهاد آخر، وأنه يمكن العمل بالاجتهادين معاً.

وإذا كان ﷺ قد سكت ولم يرجح أحد الاجتهادين، فكان الصواب من العلماء أن لا يخوضوا في هذا الأمر، إذ لا دليل علىٰ ترجيح جانب علىٰ جانب بغير نص، وطالما أنه ﷺ سكت عن الأمر، فمن أين يأتي الدليل؟

وقد ذهب الإمام ابن القيم إلىٰ تقديم اجتهاد الذين صلوا في الطريق. وقال: إنهم كانوا أسعد بالفضيلتين، فإنهم بادروا إلىٰ امتثال أمره بالخروج، وبادروا إلىٰ مرضاته في الصلاة في وقتها، فكانوا أفقه من الآخرين[1].

---

(١) «سيرة خير العباد»، لابن القيم ص١٩٧، نشره المكتب الإسلامي، وانظر: «فتح الباري» (٧/ ٤١٠).

ورحم الله ابن القيم، فإذا كان ﷺ لم يرجح وسكت علىٰ الأمر، فقد كان السكوت أولىٰ وليس معه الحجة فيما قال:

فإن تنفيذ أمره ﷺ كما ورد واجب مفروض حتىٰ ولو كان الإنسان في الصلاة. كما ورد في حديث أبي سعيد بن المعلىٰ قال: كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أصلي فقال: (ألم يقل الله: ﴿ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴿٢٤﴾﴾ [الأنفال])[1].

فإذا كان علىٰ المسلم أن يلبي أمره ﷺ ولو كان في الصلاة، أَلا يؤخر الصلاة من أجل تنفيذ أمره؟

ثم في قضايا الحروب قد يكون للدقيقة الواحدة أثرها في سير المعركة. قال شاعر الإسلام الكبير إقبال:

لحظة يا صاحبي إن تغفلِ
ألف ميل زاد بعد المنزل

---

(١) رواه البخاري (٤٤٧٤).

قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لو كنت معهم لما صليتها إلا في بني قريظة.

ومن المعلوم ما أصاب المسلمين يوم أحد بسبب عدم التقيد بنص قوله ﷺ وإدخال الاجتهاد في الموضوع وبخاصة فيما يتعلق بالحروب.

وخلاصة الأمر:

أن من التيسير ما شرعه الإسلام في أمر الاجتهاد، وإمكانية العمل بالرأيين الناتجين عن الاجتهاد، كل فريق بما اجتهد فيه.

وقد يكون أحد الاجتهادين يصلح لوقت، والآخر يصلح لوقت آخر.

كما في مسألتنا هذه فلو كانت في هذا الوقت لكان المناسب تنفيذ الأمر كما هو وعدم الصلاة إلا في بني قريظة.. لأن الدقائق التي تستغرقها الصلاة قد تغير وجه المعركة.

* * *

أكتفي بهذه الأمثلة الدالة علىٰ قصد «التيسير» في التشريع، والأمثلة غيرها كثير في هذا الباب، لمن تتبع ذلك.

الفصل الرابع

يسر الشريعة في مراعاة مصالح العباد

من القواعد المقررة لدىٰ علماء هذه الأمة: أن الشريعة مبنية علىٰ تحقيق مصالح العباد، فحيثما وجدت المصلحة فَثَمَّ شرع الله.

وقد توصل العلماء إلىٰ تقرير هذه القاعدة بناءً علىٰ استقراء عام لأحكام هذه الشريعة الغراء.

وبما أن «المصالح» تختلف من مكان إلىٰ آخر، ومن زمان إلىٰ آخر، ومن شخص إلىٰ آخر، كان لا بد من مراعاة هذه العوامل الثلاثة:

عامل المكان.

وعامل الزمن.

والعامل الشخصي، إذ لكل شخص ظروفه الخاصة به.

ومراعاة لذلك وضع الفقهاء القاعدة التالية:

تتغير الأحكام بتغير الأمكنة والأزمنة والأشخاص.

وكلا القاعدتين ـ قاعدة المصالح، وقاعدة تغير الأحكام ـ ينطلق من خط التيسير ورفع الحرج الذي جاء به هذا الدين الحنيف.

وقد عقد الإمام ابن قيم الجوزية في كتابه «إعلام الموقعين» فصلاً طويلاً، وضعه تحت العنوان التالي، قال:

فصل: في تغيير الفتوىٰ واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد»[1].

وقد أكثر من الأمثلة في شرح هذا العنوان، وقد رأيت أن أذكر هنا بعضاً من مقدمة هذا الفصل، ومثالاً واحداً مما ضربه من أمثلة.

قال رحمه الله تعالىٰ:

«هذا فصل عظيم النفع جداً، وقع بسبب الجهل

---

(١) العوائد: أي العادات والعرف السائد بين الناس.

به غلط عظيم علىٰ الشريعة، أوجب من الحرج والمشقة، وتكليف ما لا سبيل إليه ما يعلم أن الشريعة الباهرة التي في أعلىٰ رتب المصالح لا تأتي به.

فإن الشريعة مبناها وأساسها علىٰ الحِكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد.

وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها.

فكل مسألة خرجت من العدل إلىٰ الجور، ومن الرحمة إلىٰ ضدها، ومن المصلحة إلىٰ المفسدة، ومن الحكمة إلىٰ العبث، فليست من الشريعة، وإن أدخلت فيها بالتأويل.

فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالة عليه وعلىٰ صدق رسوله ﷺ..»[1].

وما كان كذلك فلن يكون فيه مكان للحرج والمشقة، المنافيان للرحمة والتيسير، ومن الأمثلة التي ضربها علىٰ ذلك، قوله:

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/٣).

«المثال الرابع: أن النبي ﷺ فرض صدقة الفطر صاعاً من تمر أو صاعاً من شعير، أو صاعاً من زبيب، أو صاعاً من أقط.

وهذه كانت غالب أقواتهم بالمدينة.

فأما أهل بلد أو محلة قوتهم غير ذلك، فإنما عليهم صاع من قوتهم، كمن قوتهم الذرة أو الأرز، أو التين، أو غير ذلك من الحبوب.

فإن كان قوتهم من غير الحبوب، كاللبن، واللحم، والسمك، أخرجوا فطرتهم من قوتهم كائناً ما كان.

هذا قول جمهور العلماء، وهو الصواب الذي لا يقال بغيره، إذ المقصود سدّ خلة المساكين يوم العيد، ومواساتهم من جنس ما يقتاته أهل بلدهم، وعلىٰ هذا فيجزئ إخراج الدقيق وإن لم يصح فيه الحديث.

وأما إخراج الخبز والطعام، فإنه وإن كان أنفع للمساكين لقلة المؤنة والكلفة فيه فقد يكون الحب أنفع لهم لطول بقائه، وأنه يتأتىٰ منه ما لا يتأتىٰ من الخبز

والطعام ولا سيما إذا كثر الخبز والطعام عند المسكين، فإنه يفسد ولا يمكنه حفظه.

وإنما نص علىٰ الأنواع المخرجة لأن القوم لم يكونوا يعتادون اتخاذ الأطعمة يوم العيد، بل كان قوتهم يوم العيد كقوتهم سائر السنة..

فإذا كان أهل بلد أو محلة عادتهم اتخاذ الأطعمة يوم العيد، جاز لهم ـ بل يشرع لهم ـ أن يواسوا المساكين من أطعمتهم»[1].

وهكذا يراعىٰ اختلاف الزمان والمكان والعادات.. إن «الأقط» الذي كان من أقوات أهل المدينة في زمنه ﷺ لم يعد في هذه الأيام كذلك.

وبناء علىٰ ذلك التيسير الكبير الذي رأيناه فيما ذكره الإمام ابن القيم، كان واضحاً في أذهان السلف هذا الأمر، فذهب الإمام أبو حنيفة إلىٰ جواز إخراج القيمة[2]، لأن ذلك أيسر علىٰ المسكين في قضاء حاجاته، وشرائه ما هو بحاجة إليه.

---

(١) «إعلام الموقعين» (٣/ ١٢).

(٢) انظر ـ إن رغبت ـ بحث الزكاة في كتاب «فقه السنة» لسيد سابق.

ومن المعلوم أن «النقد» لم يكن متوفراً بين الأيدي في زمنه ﷺ، فكان الأيسر علىٰ الناس أن يخرجوا هذه الزكاة من الأقوات المتوفرة في بيوتهم.

وفي هذا الزمن يذهب المسلم ليشتري القمح أو التمر من السوق ليخرجه زكاة لفطره، أليس من الأيسر عليه أن يخرج القيمة ويدع للمسكين حرية اختيار ما يريد شراءه، وما هو بحاجة إليه؟ بلىٰ. وهذا ما ذهب إليه الإمام أبو حنيفة وكثير من فقهاء الزمن الحاضر..

وهكذا تظل أحكام الشريعة مراعية لمصالح العباد، تحقيقاً لليسر الذي جاء به هذا الدين الحنيف.

الفصل الخامس

الدعاة وفقه التيسير

إن مهمة الدعوة إلىٰ الله تعالىٰ مهمة جليلة، يختار الله لها من عباده من اصطفاهم لنفسه.

فعملهم امتداد لعمل الأنبياء، وغايتهم هي غاية الأنبياء، ولذا كان عليهم أن يكونوا في سمت الأنبياء ووقارهم، وفي حكمتهم وحسن تصرفهم في علمهم وفهمهم.

إنها المهمة العظيمة التي من خلالها يكون صلاح الأمم، من حيث الأخلاق والسلوك، ومن حيث الاعتقاد والعبادة، ومن حيث التعامل الاجتماعي والاقتصادي.

ومن هنا كانوا ورثة الأنبياء. كما قال سيد البشر محمد صلوات الله وسلامه عليه.

وإذا كانت مهمة الدعوة بهذه المكانة وهذا

الفضل، فينبغي لمن اختار طريقها أن يكون علىٰ قدر من العلم بسيرته ﷺ في دعوته للناس، حتىٰ يكون علىٰ الأثر.. وحتىٰ يكون في الطريق الصحيح.. وحتىٰ يصل إلىٰ الغاية المرجوة.

إن من أول واجبات الداعية أن يكون حسن السيرة ملتزماً بالأخلاق الحميدة بحيث تكون دعوته إلىٰ الخير بلسان حاله قبل لسان مقاله.. وعندما يكون الحال والمقال متطابقين، فإن الكلمات تأخذ طريقها إلىٰ القلوب، ويكون لها أثرها وفعاليتها.

وليس مقصدي ـ هنا ـ الحديث عن الدعاة في إطاره الواسع، وإنما في جانب واحد منه، وهو فقههم ليسر الإسلام وسماحته في إطار مهمتهم، تطبيقاً في سلوكهم، وبياناً ودعوة للآخرين.

وهو ما دعا إليه ﷺ، وطبقه، وعلمه ووصّىٰ به صحابته رضي الله عنهم.

فقد بعث ﷺ أبا موسىٰ الأشعري ومعاذَ بن جبل إلىٰ اليمن وكان من وصيته لهما:

(يسِّرا ولا تعسِّرا، وبشِّرا ولا تنفِّرا، وتطاوعا

ولا تختلفا)[1].

وقد تكررت دعوته ﷺ بذلك، ففي خطاب عام قال ﷺ: (يسِّروا ولا تعسِّروا، وسكنوا ولا تنفِّروا)[2].

تلك هي السمة العامة لهذا الدين، ومن مهمة الدعاة بيانها للناس..

ومن الأمثلة علىٰ هذا المسلك من السماحة واليسر ما جاء في قصة ثمامة بن أثال الحنفي، وهو واحد من أعداء الإسلام الذين امتلأت نفوسهم كرهاً وبغضاً لهذا النبي الكريم ﷺ، كما عبر عن ذلك بنفسه.

«فقد جاءت به إحدىٰ سرايا رسول الله ﷺ إلىٰ النبي ﷺ أسيراً، وربطوه بسارية من سواري المسجد، فخرج إليه النبي ﷺ فقال: (ما عندك يا ثمامة؟).

فقال: عندي خير يا محمد، إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم، تنعم علىٰ شاكر، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت..

---

(١) رواه البخاري (٣٠٣٨)، ومسلم (١٧٣٣).
(٢) رواه البخاري (٦١٢٥)، ومسلم (١٧٣٤).

فتركه ﷺ إلىٰ اليوم التالي، ثم قال له: (ما عندك يا ثمامة؟) فكرر كلامه السابق.

ثم تركه إلىٰ اليوم الثالث وكرر ﷺ مقالته، وكرر الرجل مقالته، ثم قال ﷺ: (أطلقوا ثمامة).

فانطلق الرجل إلىٰ نخل قريب من المسجد، فاغتسل ثم دخل المسجد، فقال: أشهد أن لا إلـٰه إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله. يا محمد! والله ما كان علىٰ الأرض وجه أبغض إليَّ من وجهك، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليَّ، والله ما كان من دين أبغض إليَّ من دينك، فأصبح دينك أحب الدين إليَّ. والله ما كان من بلد أبغض إلي من بلدك، فأصبح بلدك أحب البلاد إلي..»[1].

كان قلب الرجل ينضح بغضاً للرسول ﷺ ودينه وبلده. ولكنه لما رأىٰ تلك السماحة واللطف في المعاملة وفي المخاطبة.. ورأىٰ أن النبي ﷺ لم يطلب منه مالاً.. وإنما أطلقه كرماً وسماحة.. وكان الرجل مستعداً أن يدفع ما يطلب منه مقابل إطلاق سراحه..

---

(١) رواه البخاري (٤٣٧٢)، ومسلم (١٧٦٤).

لما رأىٰ ذلك ورأىٰ سماحته ﷺ مع أصحابه.. دخل الإسلام قلبه فلم يملك نفسه أن ذهب فاغتسل ثم جاء يعلن إسلامه..

إنه درس في المعاملة الحسنة وفي السماحة، مع الأعداء..

إنه الخط العام في هذا الدين.. يسر وسماحة.. لين وتبشير بالخير.

والدعوة إلىٰ الله ليست ذات طابع واحد، بل هي متنوعة في أسلوبها بحسب من توجه إليه، ونستطيع ـ بشكل عام ـ تقسيمها إلىٰ ثلاثة أنواع:

ـ دعوة غير المسلمين إلىٰ الإسلام.

ـ دعوة المسلمين إلىٰ التزام الطريق السوي والمحافظة علىٰ الاستقامة.

ـ دعوة المسلمين إلىٰ قيام بمعروف، أو نهيهم عن منكر.

ولكل من هذه الأنواع طريقتها التي تتمشىٰ مع أهدافها. وأوضح ذلك باختصار.

* * *

فأما دعوة غير المسلمين، فقد أوضح النبي الكريم ﷺ طريقتها والأسلوب الذي ينبغي اتباعه بشأنها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل، حين بعثه إلىٰ اليمن: (إنك ستأتي قوماً أهل كتاب، فإذا جئتهم فادعهم إلىٰ أن يشهدوا أن لا إلـٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد علىٰ فقرائهم.

فإن هم أطاعوا لك بذلك، فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينه وبين الله حجاب)[1].

فهذا الحديث معلم من معالم الدعوة، إلىٰ الله

---

(١) رواه البخاري (١٤٩٦)، ومسلم (١٩).

تعالىٰ، بيّن فيه ﷺ ترتيب الأمور بحسب أولوياتها، وأنه يبدأ بالأهم فالمهم، وذلك مع التلطف في الخطاب.

ويفهم منه أن فرائض الإسلام لا يطالب بها دفعة واحدة لأول مرة، فإن ذلك مدعاة للتنفير.. حيث يرىٰ المدعو إلىٰ الإسلام ثقل التكاليف وكثرتها، فيكون ذلك سبباً لعدم الاستجابة..

وإنه ليستوقفني طويلاً قوله ﷺ: (فإن هم أطاعوا لك بذلك) أي: انقادوا وأجابوا، وهذا قد يستغرق وقتاً، وفي رواية بشأن فقرة الصلاة: (فإذا صلوا)..

وخلاصة ما يفهم من الحديث: أن عرض الإسلام من قبل الدعاة ينبغي أن يكون للخطوط العريضة التي تمثل الفرائض، وأن لا تعرض كلها دفعة واحدة بل الواحدة بعد الأخرىٰ، وبعد أن يكون المدعو قد تعودها وعمل بها.

إن الدواء الذي يصفه الطبيب للمريض إنما يكون علىٰ دفعات ولو أخذه المريض دفعة واحدة ربما قتله.

وما نصّ عليه الحديث من أمر التدرج والتريث والترتيب. هو المنهج الذي اقتضت حكمة الله تعالىٰ تنزيل أحكام الإسلام بموجبه، فإن الله تعالىٰ طوال مدة الدعوة بمكة لم ينزل فيها إلا أمر الصلاة، ثم نزلت الأوامر علىٰ مهل في المرحلة المدنية.. ولو كان نزولها دفعة واحدة لعجزوا عنها.

إن علم الداعية أولاً، وحكمته ثانياً، هما مما يسهل وصوله إلىٰ مطلوبه وهذه سنته ﷺ قائمة علىٰ التيسير.. ومن التيسير المطالبة بالأمر بعد الأمر، وهذا هو الفقه في دين الله تعالىٰ.

❁ ❁ ❁

أما دعوة المسلمين التي تعني نصحهم وتذكيرهم وإرشادهم، فهي بشكل عام تتم بأحد أسلوبين.

الأول منهما: فرضه الإسلام وجعله شعيرة من شعائره وهو خطبة صلاة الجمعة، وهذه مهمة الخطيب فيها معالجة ما يستجد من أحداث، وبيان أحكام الله فيها.. إلىٰ غير ذلك مما يقتضيه الحال والزمن والمكان.

والثاني: ما يقوم به الوعاظ من تذكير ونصح وإرشاد..

ويغلب علىٰ هذا اللون ما اعتبره الوعاظ الأمر الأساس في عملهم، وهو ذم الدنيا، والدعوة إلىٰ تركها. .

وهو وإن كان أمراً مطلوباً، فهو مطلوب بقدر، فالدنيا من حيث هي الزمن الذي يقضيه الإنسان في هذه الحياة لا تذم، وإنما يذم العمل السيئ فيها.

والذي ينبغي علىٰ الواعظ هو التذكير بالعمل الصالح، والدعوة إلىٰ أن يحسن كل إنسان عمله، وأن يخلص النية فيه. . فهذا هو الطريق الصحيح المؤدي إلىٰ النجاة في الآخرة، فالحياة الدنيا وجدت ليكون الحساب في الآخرة علىٰ ما قام به الإنسان فيها من عمل. . فكيف يدعىٰ إلىٰ تركها.

قال أبو نضرة طلبت حاجة إلىٰ عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته، فغدوت عليه، وقد أعطيت فطنة ولساناً، فأخذت في الدنيا فصغرتها، فتركتها لا تسوي شيئاً، وإلىٰ جنبه رجل أبيض الشعر، أبيض الثياب، فقال لما فرغت:

كل قولك كان مقارباً، إلا وقوعك في الدنيا، وهل تدري ما الدنيا؟

إن الدنيا فيها بلاغنا إلىٰ الآخرة، وفيها أعمالنا التي نجزىٰ بها في الآخرة.

قال: فأخذ في الدنيا رجل هو أعلم بها مني، فقلت: يا أمير المؤمنين، من هذا الرجل الذي إلىٰ جنبك؟

قال: سيد المسلمين، أُبي بن كعب[1].

هذه هي الدنيا، ومن هذا المنطلق ينبغي أن يكون الحديث عنها، فهي الوقت وهي العمر الذي يعيشه الإنسان فينبغي أن يحرص عليه فيمضيه بالعمل الخير.

إن هذا المفهوم السائد بين الوعاظ ينبغي تصحيحه، كما ينبغي علىٰ الواعظ أن يعيش عصره وزمنه، فيعرف كيف ينصح وكيف يسدد.

ومن المهم أن لا يقتصر علىٰ لغة الترهيب، فالقرآن الكريم جاء بالترغيب والترهيب وكذلك السنة المشرفة..

---

(١) «مواعظ الصحابة»، للمؤلف، نشره المكتب الإسلامي، ص٢٦٢.

إنه من المهم علىٰ الواعظ أن يفهم يسر الإسلام وسماحته وعفوه، فلا يغلق الأبواب في وجه المذنبين فيخالف بذلك طريق السنة..

وقد ورد في «الصحيحين» أن رجلاً من بني إسرائيل قتل تسعة وتسعين إنساناً، ثم خرج يسأل هل له من توبة؟ فسأل راهباً، فقال له: لا توبة لك، فقتله فكمل به مائة، ثم سأل راهباً آخر، فقال: لك توبة، وأرشده إلىٰ ما يصنع.. ثم تاب الله عليه..[1].

ونؤكد مرة أخرىٰ أن علم الواعظ وحكمته إذا توفرا كفيلان بأن يكون عمله مثمراً.

* * *

أما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فميدان العمل فيه هو المجتمع الإسلامي، والأمر بالمعروف: هو نصيحة وتوجيه لعمل الخير.

والنهي عن المنكر: هو نصيحة بالإقلاع عن الذنب أو الابتعاد عنه قبل وقوعه، وهذا الأمر ليس مختصاً بالعلماء والدعاة؛ بل هو واجب علىٰ كل

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

مسلم يعيش في المجتمع الإسلامي، وهذا الوجوب علىٰ الكفاية، فإذا قام به بعض المسلمين سقط الإثم عن الباقي.

ولا بد فيمن يقوم بذلك، أن يكون عالماً بالمعروف الذي يأمر به، عالماً بالمنكر الذي ينهىٰ عنه أنه منكر.

ويشترط فيه أن لا يؤدي النهي عن المنكر إلىٰ وقوع في منكر أكبر منه.

ولإنكار المنكر درجات، إزالته باليد إذا كان قادراً، وهذه وظيفة الدولة، في الغالب، ثم التنبيه عليه باللسان، ثم الإنكار في القلب إذ لم يكن قادراً باللسان.

ومحل الشاهد في هذا الموضوع: أنه طالما أمكن استعمال الكلمة الطيبة في ذلك فهو الأحسن والأفضل، لأنه يتساوق مع منهج الإسلام في اليسر، وكثيراً ما كان للكلمة الطيبة أثرها أكثر من الكلمة الخشنة.

وقد قال تعالىٰ في حق رسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ

﴿مِنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وخلاصة القول: أن الدعوة إلىٰ الله بكل ألوانها ينبغي أن تكون بالكلمة الطيبة والأسلوب السهل اللين الذي يتقبله الناس.. ما دام ذلك ممكناً.

ونختم هذا الموضع بقول علي رضي الله عنه:

«إن الفقيه حق الفقيه: من لم يقنط الناس من رحمة الله، ولم يرخص لهم في معاصي الله»[١].

(١) رواه الدارمي (٢٩٧).

الفصل السادس

عقيدة ميسرة للفهم

يمتاز الإسلام علىٰ كل الأديان التي عرفتها الإنسانية بعقيدته الواضحة والتي هي كالشمس في رابعة النهار، وهي بيضاء ناصعة ليلها كنهارها.

وهذا الوضوح الفريد كان السبب المباشر لسهولة فهمها، ودخولها إلىٰ القلب والعقل دون كبير جهد أو عناء يبذل.

فهي متساوقة مع الفطرة، ولهذا سهل علىٰ الإنسان العاقل تقبلها، ذلك أنها تلبي حاجة هذه الفطرة.

ثم إن هي إلا الإيمان بالواقع المتيقن الذي أجمعت علىٰ إقراره الفطرة والعقل والقلب، بعيداً عن الأوهام والتخرصات.

وفي هذا الفصل نتحدث عن العقيدة الإسلامية من حيث وضوحها وسهولة فهمها.

(١)

بطاقة النجاة

كان النبي ﷺ يدعو الناس إلىٰ الله تعالىٰ والإيمان به. والدخول في الإسلام الذي رضيه الله تعالىٰ لعباده ديناً.

فكان من رضي ذلك وقبله يعلن رضاه، وقبوله بالنطق بكلمة «التوحيد» كلمة الحق، وشهادة الحق وهي:

«أشهد أن لا إلـٰه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله».

وما زال كل من أراد اعتناق الإسلام يفعل ذلك.

إنه عمل سهل ميسر، لا يحتاج إلىٰ طقوس أو شكليات، لا يشترط له زمان أو مكان. فمن أراد الإسلام أمكنه أن ينطق بهذه الكلمة في أي وقت، وأي مكان، ليس من الضروري أن يرددها وراء أحد من الناس عالم أو غير عالم..

إنما شرطها الوحيد: أن يتلفظ بها ويعمل بعد بموجبها.

وهي كلمة واضحة المعنىٰ، فهي الإقرار والاعتراف والإيمان بوجود إلٰه واحد لا شريك له. له الأسماء الحسنىٰ وله صفات الكمال. ليس كمثله شيء، فهو الخالق الرازق.. الغفور الرحيم..

ومن مقتضىٰ هذه الكلمة: الإيمان بأن محمداً ﷺ رسول الله، فهو المبلغ عن الله أوامره لعباده، فالواجب التصديق بكل ما جاء به والعمل بمقتضاه.

ومعنىٰ هذه الكلمة ولازمها هو ما تقتضيه الفطر السليمة وتقره، فليس من عناء أو مشقة في فهم معناها، وليس من طلاسم تحتاج إلىٰ تفكيك وبيان، أو معميات تحتاج إلىٰ شرح وإيضاح.

وتعد هذه الكلمة الركن الأساس في بناء الإيمان لهذا الدين، ولهذا لا يقبل الخلل بحقها بشكل من الأشكال. قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨].

فمن مات علىٰ الشرك فإن الله لا يغفر له، ومن مات علىٰ التوحيد وكان قد أتىٰ بذنوب أخرىٰ، فإنها قابلة للمغفرة بإذن الله تعالىٰ ومشيئته.

والشرك نفسه ما دام الإنسان في الحياة يمكن التخلص منه بالإيمان.

ومن هنا كانت «كلمة التوحيد» لا يعدلها أمر آخر من أعمال الإسلام مهما كان شأنه، لأنها الأساس الذي يبنىٰ عليه غيره.

وهذا ما جاءت الأحاديث الشريفة الصحيحة ببيانه:

فقد روىٰ محمود بن الربيع رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله قد حرم علىٰ النار من قال: لا إلٰه إلا الله، يبتغي بذلك وجه الله)[1].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: أتيت النبي ﷺ وعليه ثوب أبيض فقال:

(ما من عبد قال: لا إلٰه إلا الله، ثم مات علىٰ ذلك إلا دخل الجنة).

قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟

قال: (وإن زنىٰ وإن سرق).

---

(١) رواه البخاري (٤٢٥)، ومسلم (٣٣ مكرر).

قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟

قال: (وإن زنىٰ وإن سرق).

قلت: وإن زنىٰ وإن سرق؟

قال: (وإن زنىٰ وإن سرق علىٰ رغم أنف أبي ذر).

وكان أبو ذر إذا حدث بهذا الحديث قال: وإن رغم أنف أبي ذر[1].

إن أبا ذر رضي الله عنه لم يستوعب عقله النص علىٰ إطلاقه، وأن هذه الكلمة كافية للنجاة يوم القيامة، ولذلك استفسر عن الأمر ثلاث مرات، حتىٰ اضطر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقول له في الثالثة: (علىٰ رغم أنف أبي ذر).

والأحاديث في هذا كثيرة..

وعن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلىٰ الحرقة من جهينة، قال: فصبحنا القوم فهزمناهم، قال: ولحقت أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما غشيناه، قال: لا إلـٰه إلا الله.

---

(١) رواه البخاري (٥٨٢٧)، ومسلم (٩٤).

قال أسامة: فكفَّ عنه الأنصاري، فطعنته برمحي حتىٰ قتلته.

فلما قدمنا، بلغ ذلك النبي ﷺ فقال لي: (يا أسامة، أقتلته بعدما قال: لا إلـٰه إلا الله؟).

قال: قلت، يا رسول الله، إنما كان متعوذاً.

قال: (أقتلته بعدما قال: لا إلـٰه إلا الله؟).

قال: فما زال يكررها عليَّ حتىٰ تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك اليوم[1].

إنها الكلمة المنجية في الحياة الآخرة، ومن باب أولىٰ أن تكون منجية في الحياة الدنيا. ولذلك كان غضبه ﷺ من فعل أسامة، حتىٰ تمنىٰ أسامة أن لو كان إسلامه بعد ذلك اليوم، حتىٰ لا يكون مسجِّلاً هذا الفعل في سجل أعماله.

* * *

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله سيخلص رجلاً من أمتي علىٰ رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين

---

(١) رواه البخاري (٦٨٧٢)، ومسلم (٩٦).

سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئاً؟ أظلمتك كتبتي الحافظون؟.

فيقول: لا، يا رب.

فيقول: أفلك عذر؟

فيقول: لا، يا رب.

فيقول الله تعالىٰ، بلىٰ، إن لك عندنا حسنة، فإنه لا ظلم عليك اليوم، فتخرج بطاقة فيها: أشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

فيقول: احضر وزنك.

فيقول: يا رب، ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟

فقال: إنك لا تظلم.

قال: فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات، وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء)[1].

---

(١) رواه الترمذي (٢٦٢٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) وصححه الألباني.

تلك هي مكانة كلمة التوحيد، تسجلها الآيات الكريمة والأحاديث الصحيحة، وهي عماد هذا الدين، ولا يقوم غيرها مقامها.

وهي ـ مع ذلك ـ سهلة في الفهم، سهلة في النطق، ومنها انبثق يسر الإسلام فتشرّبته جميع أنظمته ومناهجه، في الكليات منها والفروع.

* * *

(٢)
أصول الدين وقواعده

كان لا بد من وجود نص مختصر يجمع معالم هذا الدين الحنيف، يكون موجزاً ليسهل حفظه ويستقر في القلوب والعقول.

وقد قام بهذه المهمة جبريل عليه السلام، كما جاء في الحديث التالي:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: بينما نحن [جلوس] عند رسول الله ﷺ ذات يوم، إذا طلع علينا رجل، شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرىٰ عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتىٰ جلس

إلىٰ النبي ﷺ. فأسند ركبتيه إلىٰ ركبتيه، ووضع كفيه علىٰ فخذيه، وقال: يا محمد، أخبرني عن الإسلام.

فقال رسول الله ﷺ: (الإسلام: أن تشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً).

قال: صدقت.

قال [عمر]: فعجبنا له، يسأله ويصدقه.

قال: فأخبرني عن الإيمان.

قال: (أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

قال: صدقت، قال: فأخبرني عن الإحسان.

قال: (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه، فإنه يراك).

قال: فأخبرني عن الساعة.

قال: (ما المسؤول عنها بأعلم من السائل).

قال: فأخبرني عن أماراتها.

قال: (أن تلد الأمة ربتها، وأن ترىٰ الحفاة العراة العالة، رعاء الشاء، يتطاولون في البنيان).

قال [عمر]: ثم انطلق، فلبثت مليّاً، ثم قال لي رسول الله ﷺ: (يا عمر، أتدري من السائل؟) قلت: الله ورسوله أعلم.

قال: (فإنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم)[١].

إنها معلومات ومعالم لا بد من أن تأخذ مكانها في عقول المسلمين وقلوبهم، ولما لم يسألوا عنها، نزل جبريل ليسأل عنها، تعليماً للصحابة رضي الله عنهم لهذه المعالم. وهذا ما أوضحه ﷺ بقوله: (هذا جبريل أراد أن تعلموا إذ لم تسألوا)[٢].

هذا هو الدين يجمع أصوله هذا الحديث الشريف.

• فأما الإسلام فقد فسَّره النبي ﷺ بأعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وأول ذلك شهادة

---

(١) رواه مسلم (٨) وجاء هذا الحديث عن أبي هريرة عند البخاري (٥٠)، ومسلم (٩، ١٠).
(٢) رواه مسلم (١٠).

أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وهو عمل اللسان، ثم إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً.

● وأما الإيمان، فقد فسّره النبي ﷺ بالاعتقادات الباطنة، فقال: (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

وأركان الإيمان هذه هي «الإيمان بالغيب» لأن المسلم يؤمن بها للأخبار التي ذكرتها الآيات والأحاديث عنها، فالإيمان بها إنما كان تصديقاً لله تعالىٰ ورسوله ﷺ. فالإسلام علانية والإيمان في القلب.

● ثم ذكر الإحسان وفسّر معناه وبيَّن علامات الساعة.

تلك هي معالم الإسلام وأركان الإيمان مفصلة بالقول النبوي الشريف، أجمل بيان وأوضحه. إنها قضايا واضحة ذوات عدد ينبغي التقيد بها.

فهل من مشقة أو حرج في فهم هذه الأمور؟

لقد اكتفىٰ ﷺ من المسلم أن يقوم بأركان الإسلام الخمسة، وأن يعقد قلبه علىٰ أركان الإيمان الستة.. وتلك هي أركان الدين.

فهل هناك دين أيسر من هذا؟

* * *

سئل الإمام ابن تيمية، عما يجب علىٰ المكلف اعتقاده؟

فأجاب بقوله:

«الحمد لله رب العالمين. ما يجب علىٰ المكلف اعتقاده، فيه إجمال وتفصيل.

أما الإجمال: فإنه يجب علىٰ المكلف أن يؤمن بالله ورسوله، ويقر بجميع ما جاء به الرسول ﷺ: من أمر الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وما أمر به الرسول ونهىٰ عنه، بحيث يقر بجميع ما أخبر به وما أمر به، فلا بد من تصديقه فيما أخبر، والانقياد له فيما أمر.

وأما التفصيل: فعلىٰ كل مكلف أن يقر بما ثبت عنده، من أن الرسول ﷺ أخبر به وأمر به.

وأما ما أخبر به الرسول، ولم يبلغه أنه أخبر به، ولم يمكنه العلم بذلك، فهو لا يعاقب علىٰ ترك الإقرار به مفصلاً، وهو داخل في إقراره بالمجمل العام.

ثم إن قال خلاف ذلك متأولاً، كان مخطئاً يغفر له خطؤه، إذا لم يحصل منه تفريط ولا عدوان.

ولهذا يجب علىٰ العلماء من الاعتقاد، ما لا يجب علىٰ آحاد العامة.

ويجب علىٰ من نشأ بدار علم وإيمان ـ من ذلك ـ ما لا يجب علىٰ من نشأ بدار جهل»[1].

هذا هو الفهم في دين الله تعالىٰ.

وهذا هو «التيسير» الذي هو طابع الإسلام.

---

(١) «الفتاوىٰ» (٣/ ٣٢٧).

الفصل السابع

التيسير في العبادات

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (بني الإسلام علىٰ خمس: شهادة أن لا إلٰه إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان)[1].

هذه هي أركان الإسلام: والركن الأول منها يشترك مع الركن الأول من أركان الإيمان، ولكن المطلوب هنا التلفظ بهذه الشهادة حتىٰ يكون الإنسان في عداد المسلمين، والمطلوب هناك: أن يستقر معناها في القلب فيكون مؤمناً بمعناها.

❁ ❁ ❁

أما الأركان الأربعة الأخرىٰ، فهي ما يطلق عليه اسم «العبادات» بمفهومها الخاص.

---

(١) رواه البخاري (٨)، ومسلم (١٦).

وموضوعنا يتعلق بجانب التيسير الذي جعله الله تعالىٰ في هذه العبادات.

وأول ما يقف الإنسان عنده: هو تنوع هذه العبادات، فمن رحمة الله بعباده وتيسيره لهم، أنه ـ سبحانه ـ جعل العبادة أنواعاً ليسهل علىٰ الإنسان القيام بها، ولو كانت لوناً واحداً: صلاة مثلاً فقط، أو صياماً فقط.. لأصاب الإنسانَ المللُ، ووقع في التقصير، ولكنها لما تنوعت سهل القيام بها.

وهذا ما أشار إليه ابن عطاء السكندري في حِكمه، بقوله: «لما علم الحق ـ سبحانه ـ منك وجود الملل، لوَّن لك الطاعات»(١).

والأمر الثاني من أمور التيسير العام المشترك بين هذه العبادات، أنه ﷻ جعلها في حدود ما يستطيعه الإنسان وما يطيقه.

فمن لطفه تعالىٰ بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم، أنه لم يكلف أحداً فوق طاقته فقال تعالىٰ مقرراً ذلك: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) «الحكمة» (١١٥).

والأمر الثالث من أمور التيسير في العبادات أيضاً، أن الله ﷻ جعلها نوعين: فرائض ونوافل.

فالفرائض: ما كان القيام بها علىٰ وجه الإلزام تنفيذاً لأمره تعالىٰ عبادة وطاعة له.

أما النوافل: فهي الزوائد علىٰ الفروض، ويقوم بها العبد تقرباً إلىٰ الله تعالىٰ، إن رغب في ذلك، فالأمر متروك إليه في القيام بها وعدم القيام.

واليسر في الأمر هنا أنه يستطيع الاقتصار علىٰ الفرائض فقط وهو ما نصت عليه الأحاديث الشريفة.

قال طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه: جاء رجل إلىٰ رسول الله ﷺ من أهل نجد، ثائر الرأس، يسمع دوي صوته ولا يفقه ما يقول، حتىٰ دنا، فإذا هو يسأل عن الإسلام فقال رسول الله ﷺ: (خمس صلوات في اليوم والليلة).

فقال: هل علي غيرها؟

قال: (لا، إلا أن تطوع).

قال رسول الله ﷺ: (وصيام رمضان).

قال: هل علي غيره؟

قال: (لا، إلا أن تطوع).

قال: وذكر له رسول الله ﷺ الزكاة.

قال: هل عليَّ غيرها؟

قال: (لا، إلا أن تطوع).

قال: فأدبر الرجل، وهو يقول: والله لا أزيد علىٰ هذا ولا أنقص.

قال رسول الله ﷺ: (أفلح إن صدق) وفي رواية: (دخل الجنة إن صدق)[١].

وعن جابر رضي الله عنه: أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ فقال: أرأيت إذا صليت الصلوات المكتوبات، وصمت رمضان، وأحللت الحلال وحرمت الحرام، ولم أزد علىٰ ذلك شيئاً، أأدخل الجنة؟ قال: (نعم)، قال: والله لا أزيد علىٰ ذلك شيئاً[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه: أن أعرابياً أتىٰ النبي ﷺ

---

(١) رواه البخاري (٤٦، ٦٩٥٦)، ومسلم (١١).

(٢) رواه مسلم (١٥).

فقال: دلني علىٰ عمل، إذا عملته دخلت الجنة.

قال: (تعبد الله لا تشرك به شيئاً، وتقيم الصلاة المكتوبة، وتؤدي الزكاة المفروضة، وتصوم رمضان).

قال: والذي نفسي بيده لا أزيد علىٰ هذا.

فلما ولىٰ، قال النبي ﷺ: (من سرّه أن ينظر إلىٰ رجل من أهل الجنة، فلينظر إلىٰ هذا)[1].

فهذه أحاديث ـ وكلها في الصحيح ـ تؤكد علىٰ أن الاقتصار علىٰ الفروض كافٍ للفوز ودخول الجنة.

فهل هناك أعظم من هذا التيسير؟!

❁ ❁ ❁

بعد هذه المقدمة عن التيسير في العبادات بشكل عام، يحسن بنا أن نبيِّن جوانب التيسير في كل عبادة علىٰ انفراد بما يخصها:

التيسير في شأن الصلاة:

ويظهر ذلك من جوانب متعددة.

فالطهارة شرط للصلاة ـ سواء أكانت غسلاً أم

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٧)، ومسلم (١٤).

وضوءاً ـ وفي حال تعذر استكمال هذا الشرط بسبب فقد الماء، أو المرض. فإن التيمم يقوم مقام الوضوء، كما يقوم مقام الغسل عند وجوبه.

ومن التيسير: أن الوضوء الواحد يمكن أن تصلي به العدد من الصلوات ما لم ينتقض، فلا يجب الوضوء لكل صلاة.

ومنه: المسح علىٰ الخفين أو الجوربين بدلاً من غسل الرجلين.

أما الصلاة ذاتها: فهناك خمس صلوات في اليوم والليلة موزعة علىٰ أوقات معلومة.

فمن رحمته تعالىٰ وتيسيره أنه لم يجعلها كلها دفعة واحدة فيثقل علىٰ الإنسان القيام بها، ولهذا التوزيع حكمة بالغة، وهي أن الله جعل هذه الصلاة فواصل في سير الحياة، فتكون وقتاً للراحة من عناء السير في الحياة وكدها، ولهذا المعنىٰ جاء قوله ﷺ: (أرحنا بها يا بلال)[١].

---

(١) رواه أبو داود (٤٩٨٥).

ثم من التيسير: أن وقت كل صلاة، له بدء وله نهاية والإنسان مخير في أداء الصلاة بين ذلك، وإن كان الأفضل الصلاة علىٰ أول وقتها.

وإذا ألَمَّ المرض بمسلم ما، فإن استطاع أن يصلي قائماً، كما هو الأصل، فذلك خير، فإن لم يستطع صلىٰ جالساً، فإن لم يستطع صلىٰ مضطجعاً.. وهكذا بحسب استطاعته، حتىٰ ولو أصبحت الصلاة عملاً قلبياً.

وفي السفر، تصبح الصلاة الرباعية ثنائية، ويستطيع أن يؤدي صلاة الظهر مع صلاة العصر، تقديماً في وقت الظهر أو تأخيراً في وقت العصر، وكذلك المغرب والعشاء فالتخفيف في السفر في أمرين: في تقليص عدد الركعات، والجمع.

ومن التيسير أنه يمكن الجمع بين الصلاتين لأي عذر من انشغال في عمل أو ما أشبه ذلك، كما روىٰ ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ أنه صلىٰ الظهر والعصر جميعاً، والمغرب والعشاء جميعاً، من غير خوف ولا سفر[1].

---

(١) رواه مسلم (٧٠٥).

فقيل لابن عباس: ما أراد إلىٰ ذلك؟ قال: أراد أن لا يحرج أمته[1].

تلك كانت بعض جوانب التيسير التي شرعها الله تعالىٰ في الصلاة تيسيراً علىٰ الناس ورفعاً للحرج عنهم.

التيسير في شأن الزكاة:

ويظهر التيسير في شأن الزكاة في أمور عدة.

فالزكاة: هي جزء من المال يؤخذ من مال الغني ويعطىٰ إلىٰ الفقراء والمساكين، فهي فريضة مالية.

وهي فريضة خاصة بالأغنياء، وقد وضع الشرع معياراً لمعرفة الأغنياء، وهم كل من ملك «نصاباً» من المال، ولكل نوع من المال نصاب.

فنصاب الذهب ـ علىٰ سبيل المثال ـ ثمانون غراماً من الذهب، فمن ملكها كان عليه أن يؤدي زكاتها، ومن ملك أقل من ذلك فلا زكاة عليه.

---

(١) هذه الزيادة في الحديث موجودة عند أبي داود (١٢١٠)، والترمذي (١٨٧)، والنسائي (٦٠٠).

فمن التيسير: إعفاء ما دون النصاب من الزكاة.

ومن التيسير: أنها تؤخذ في العام مرة واحدة.

وأن نسبتها قليلة ليس فيها مشقة علىٰ صاحب المال، وهي ٢,٥٪ أي: بنسبة $\frac{١}{٤٠}$ من المال.

وللمزروعات أيضاً نصاب وزكاة.

وكل مال متداول في الشركات، أو مال للأفراد، فعليه زكاة.

ومن التيسير فيها: أن البيت الذي يسكنه الإنسان، والدابة ـ أو السيارة ـ التي يركبها، وكذلك آلات العمل التي يشتغل بها.. كلها معفوة من الزكاة..

ومن التيسير فيها: أنه يمكن إعطاؤها للأقرباء، ما لم يكن القريب وارثاً، أي: أن الأقرباء الذين يرثون المزكي لو مات لا يعطون من زكاته، لأن نفقتهم واجبة عليه، وما عداهم فيجوز أن يعطيهم زكاة ماله أو من زكاة ماله.

التيسير في شأن الصوم:

فرض الله علىٰ المسلمين صيام شهر رمضان.

أي: أن نسبة الصوم إلىٰ أيام السنة أقل من $\frac{١}{١٠}$ وهي نسبة قليلة وهذا من التيسير.

ثم إن مدة الصوم في اليوم الواحد، تبدأ من طلوع الفجر إلىٰ غروب الشمس، وهي مدة يحتملها الإنسان بغير مشقة عادة.

يضاف إلىٰ ذلك أنه يباح للمريض وللمسافر أن يفطرا، إذا صادف المرض والسفر أيام رمضان، علىٰ أن يقضيا صيام الأيام التي أفطرا فيها فيما بعد. قال تعالىٰ: ﴿وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

وهكذا يأتي التصريح في الآية الكريمة بإرادة اليسر.

علىٰ أن تلك الأيام التي يفطر فيها المريض أو المسافر، ليس مطلوباً منه أن يقضيها متتابعة، كالتي أفطرها، إنما له الخيار أن يقضيها حسب ما يجد

الراحة فيه، من تتابع، أو يوزعها علىٰ الأيام حسب قدرته ورغبته، وهذا تيسير آخر.

وهكذا أنىٰ سرت في تشريع فرائض الله تعالىٰ، وجدت التيسير أمامك.

التيسير في شأن الحج:

وفرض الله الحج علىٰ المستطيع من المسلمين مرة في العمر كله.. وهذا من غاية التيسير، أما غير المستطيع فهو غير مكلف أصلاً.

قال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

والاستطاعة نوعان: استطاعة بالمال بحيث تتوفر النفقة اللازمة للذهاب والإياب والإقامة وما يتبع ذلك، واستطاعة بالجسم بحيث يكون صحيحاً قادراً علىٰ تحمل مشاق السفر.

ومن التيسير: أنه إذا امتلك الاستطاعة المالية، ولم تتوفر له الاستطاعة الجسمية، فإنه يستطيع أن يستنيب عنه من يؤدي الحج عنه.. ويؤدي له النفقة اللازمة لذلك.

ومشاعر الحج أعمال تؤدىٰ في أيام معدودة، ومن تيسير الله تعالىٰ في ذلك أن ركناً واحداً منها ثابت في المكان والزمان، وهو الوقوف بعرفة، ابتداءً من بعد الزوال من يوم عرفة إلىٰ طلوع الفجر من يوم النحر، ومن وقف نهاراً فعليه أن لا ينفر قبل غروب الشمس.

أما بقية أعمال الحج فهي قابلة للتقديم والتأخير، وهذا من تيسير الله تعالىٰ ورحمته بعباده.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: أن رسول الله ﷺ وقف في حجة الوداع بمنىٰ للناس يسألونه، فجاء رجل فقال: لم أشعر فحلقت قبل أن أذبح؟ فقال: (اذبح ولا حرج)، فجاء آخر فقال: لم أشعر فنحرت قبل أن أرمي؟ قال: (ارم ولا حرج) فما سئل النبي ﷺ عن شيء قدِّم ولا أُخِّر إلا قال: (افعل ولا حرج)[1].

وهكذا يبلغ التيسير ذروته بما جاء في هذا الحديث الشريف، وما الأزمات التي تحصل في

---

(١) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (١٣٠٦).

مواسم الحج إلا نتيجة للجهل في فقه الحج وأحكامه، فالله سبحانه لم يجعل من حرج علىٰ عباده، وإنما يريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر.

وهكذا، فاليسر منبث خلال أحكام الحج كلها، ومن يرد الله به خيراً يفقهه في الدين.

* * *

تلك نماذج من التيسير، الذي أتاحه الله لعباده في العبادات التي هي أركان الدين. مما يبين أن «التيسير» أمر مقصود، ومعلم من معالم الإسلام، في كل ما دعا إليه من فرائض وأحكام.

كما قال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

الفصل الثامن

تيسير ذكر الله تعالىٰ

قال الله تعالىٰ: ﴿فَٱذْكُرُونِىٓ أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢] فلو لم يكن للذكر إلا هذه الفائدة لكان حرياً بالمسلم أن لا يفتر لسانه عن ذكر الله تعالىٰ. وأي شرف وأي مكانة هذه التي ينالها عندما يذكره الله تعالىٰ، إنه أمر لا يكاد العقل يقدره، حق قدره.

وقد جاء تفسير هذه الآية الكريمة في الحديث القدسي، الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

(يقول الله تبارك وتعالىٰ:

أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني.

فإن ذكرني في نفسه، ذكرته في نفسي.

وإن ذكرني في ملأ، ذكرته في ملأ

خير منهم..)[1].

وقد جاء في فضل «ذكر الله تعالىٰ» آيات كريمة كثيرة، وأحاديث كثيرة أيضاً.

ومن ذلك ما رواه أبو الدرداء رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (ألا أنبئكم بخير أعمالكم، وأزكاها عند مليككم، وأرفعها في درجاتكم، وخير لكم من إنفاق الذهب والفضة، وخير لكم من أن تلقوا عدوكم فتضربوا أعناقهم، ويضربوا أعناقكم؟) قالوا: بلىٰ، يا رسول الله، قال: (ذكر الله تعالىٰ)[2].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: (سبق المفردون) قالوا: وما المفردون؟ يا رسول الله، قال: (الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)[3].

ولما للذكر من مكانة عند الله تعالىٰ، فقد جاءت السنة المطهرة بأنواع كثيرة منه بحيث يكون لكل حال

---

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥).

(٢) رواه الإمام أحمد، والترمذي (٣٣٧٧)، وابن ماجه (٣٧٩٠).

(٣) رواه مسلم (٢٦٧٦).

من أحوال الإنسان «ذكر» يتناسب مع تلك الحال.

وقد ذكر الإمام ابن القيم في كتابه «الوابل الصيب» أربعة وسبعين نوعاً من الأذكار الموظفة، كل منها يقال في حالٍ أو شأن، بحيث يغُطي معظم أوقات الإنسان.

وإذا كان هذا شأن الذكر ومكانته، فأين جانب التيسير فيه، وهو موضوعنا في هذا الفصل؟

لقد جاء هذا التيسير في قوله تعالىٰ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ [آل عمران].

وقوله تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾﴾ [الأعراف].

إن هذه الآيات الكريمة تنص علىٰ أنه للإنسان أن يذكر الله تعالىٰ في كل أوضاعه وعلىٰ كل حالاته:

في حال قيامه وقعوده، واضطجاعه.

في النفس، ودون الجهر، تضرعاً وخيفة.

وهذا ما كان يفعله ﷺ. قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي ﷺ يذكر الله علىٰ كل أحيانه[1].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما عند قوله تعالىٰ: ﴿قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣]. أي: بالليل والنهار، في البر والبحر، والسفر والحضر، والغنىٰ والفقر، والمرض والصحة والسر والعلانية[2].

إن الله تعالىٰ من تيسيره علىٰ الناس في الذكر، أنه أتاح لهم أن يذكروه دائماً وعلىٰ كل أوضاعهم، ولم يفرض عليهم الالتزام بهيئة معينة أو شكل محدد يكونون عليه عند قيامهم بذكره. ولم يلزمهم كذلك بوقت معين. وهذا من غاية التيسير.

قال عبد الله بن بسر رضي الله عنه: قال رجل: يا رسول الله! إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأخبرني

---

(١) رواه مسلم (٣٧٣).
(٢) «المهذب من إحياء علوم الدين» (١/ ٢٥٢)، نشرته دار القلم بدمشق.

بشيء أتشبث به، قال: (لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله ﷻ)[1].

فقوله: (لا يزال) يعني: الاستمرار.

* * *

هذا هو الجانب الأول من التيسير في هذا الموضع. وأما الجانب الثاني، فهو أن «الذكر» يشمل: تلاوة القرآن، والذكر بمفهومه العام من تهليل وتسبيح وتحميد وما يتبع ذلك، والدعاء..

وللمسلم أن يقوم بكل هذه الأنواع من الذكر، وإن كان علىٰ غير وضوء، بل وحتىٰ لو كان علىٰ جنابة.

ولا يستثنىٰ من ذلك إلا تلاوة القرآن الكريم في حق الجنب، فإنها تحرم عليه، ويباح له ما عدا ذلك من الذكر والدعاء.

أليس هذا من يسر هذا الدين؟!

---

(١) رواه الترمذي (٣٣٧٥)، وابن ماجه (٣٧٩٣) وصححه الألباني.

الفصل التاسع

التيسير في المعاملات

أقام الإسلام التعاملات المادية التي تجري بين الناس، من بيع وغيره، علىٰ أساس من إحقاق الحق وإقامة العدل.

ووضع من القواعد الفقهية ما يضمن ذلك، وأذكر علىٰ سبيل المثال الأمور التالية:

- التراضي، بحيث يكون كل من المتعاقدين راضياً بالعقد، غير مكره عليه، وأي عقد لم يتوفر فيه هذا الشرط منهما أو من أحدهما يعد باطلاً.
- الالتزام بتنفيذ الشروط المتفق عليها، والمصاحبة للعقد، سواء أكانت لصالحهما، أو صالح أحدهما.
- انتفاء الغرر، وكل ما فيه غبن من أحد الطرفين للآخر.. كالغش وما أشبهه.
- خلو عقود المعاوضات من الربا..

إن الإسلام بهذه القيود العامة ضمن إقامة العدل، ومع ذلك فإنه أتاح للجانب الأخلاقي أن يكون له مكانة في إنجاز المعاملات المادية بين الناس. فتعاليم الإسلام مترابطة لا ينفك بعضها عن بعض.

ودور الجانب الأخلاقي هنا كله يصب في مشروع التيسير علىٰ الناس، وتحويل التعامل المادي في جانب منه ليكون عملاً خيراً مصبوغاً بصبغة هذا الدين، الذي تبتغىٰ فيه الحياة الآخرة من خلال كل عمل من أعمال المسلم حتىٰ ولو كان بيعاً أو شراء.

وأذكر علىٰ سبيل المثال ـ لا الحصر ـ بعض هذه التعاليم الأخلاقية الذي أدخلها الإسلام علىٰ التعاملات المادية بين الناس:

• فمن ذلك: أنه أيقظ في المتعاملين معنىٰ الأخوة القائمة علىٰ الدين، فالأخ ـ في الأصل ـ لو كان يتعامل مع أخيه الذي هو ابن أمه وأبيه في بيع أو شراء، ما كان إلا لينصحه ويحب له كل خير، وكذلك الأخوة في الإسلام.

قال ﷺ: (المؤمن أخو المؤمن، فلا يحل

للمؤمن أن يبتاع علىٰ بيع أخيه، ولا يخطب علىٰ خطبة أخيه حتىٰ يذر)[1].

وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم، لا يظلمه..)[2].

وقال ﷺ: (المسلم أخو المسلم، ولا يحل لمسلم باع من أخيه بيعاً، فيه عيب إلا بيّنه)[3].

وهكذا أيقظ الإسلام روح «الأخوة» لتكون حاضرة في المعاملات المادية بين المسلمين، ويكونوا في تطبيق قوله ﷺ: (لا يؤمن أحدكم حتىٰ يحب لأخيه ما يحب لنفسه)[4].

● إن هذا التعامل الرائع علىٰ أساس أخوة الإسلام، لم يجعله الإسلام قاصراً علىٰ تعامل المسلم مع المسلم، بل أراده أن يكون تعاملاً مع كل الناس، مسلمين وغير مسلمين، وذلك حتىٰ تصبح الخيريّة صفة

---

(١) رواه مسلم (١٤١٤).
(٢) رواه البخاري (٢٤٤٢)، ومسلم (٢٥٨٠).
(٣) رواه ابن ماجه (٢٢٤٦).
(٤) رواه البخاري (١٣)، ومسلم (٤٥).

للمسلم دائمة، وفي هذا جاء قوله ﷺ: (أحب للناس ما تحب لنفسك)[1].

وقال ﷺ: (من سرَّه أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة، فلتأته منيَّته وهو يشهد أن لا إلٰه إلّا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، ويأتي إلىٰ الناس ما يحب أن يؤتىٰ إليه)[2].

وهكذا جاء هذان الحديثان بلفظ (الناس) وغيرهما كثير، والمراد بالناس كل الناس، بغض النظر عن أديانهم وأعراقهم.

• ومن التيسير إنظار المعسر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال ﷺ: (من أنظر معسراً، أو وضع عنه، أظله الله في ظله)[3].

والأحاديث في هذا كثيرة جداً.

• ومن التيسير: التسامح في المعاملات، كما

---

(١) «مجمع الزوائد» (١٣٦٦٨).
(٢) «مجمع الزوائد» (١٣٦٦٩).
(٣) رواه مسلم (٣٠٠٦).

قال ﷺ: (رحم الله رجلاً، سمحاً إذا باع، وإذا اشترىٰ وإذا اقتضىٰ)[1].

وقال ﷺ: (إن من خيركم أحسنكم قضاء)[2].

وقال ﷺ: (خيركم، خيركم قضاء)[3].

- ومن التيسير، ما ندب إليه الإسلام من إقالة النادم.

ومعنىٰ الإقالة: أن يتم عقد بيع بين طرفين، ثم يندم بعد ذلك المشتري ـ أو البائع ـ علىٰ إتمام هذه الصفقة لسبب من الأسباب، كأن يستجد له أمر، فيرىٰ أنه بحاجة إلىٰ الدراهم لقضاء حاجة ضرورية، أو لها الأولوية، أو ما أشبه ذلك.

فيأتي إلىٰ البائع، ويرغب إليه في أن يحلله من هذا العقد.. ليستعيد دراهمه، ويذهب في حال سبيله.

فموافقة البائع علىٰ إلغاء هذا العقد، هو الإقالة.

---

(١) رواه البخاري (٢٠٧٦).
(٢) رواه البخاري (٢٣٠٦)، ومسلم (١٦٠١).
(٣) رواه النسائي (٤٦٣٣)، وابن ماجه (٢٢٨٦).

وهي عمل خير يثاب عليه، وهي من التيسير والتسهيل علىٰ الناس.

قال ﷺ: (من أقال مسلماً، أقال الله عثرته يوم القيامة)[1].

* * *

تلك نماذج من تشريعات اليسر في المعاملات، تبين طرفاً من سماحة هذا الدين ويسره، وكيف أن ذلك من سماته وخصائصه، ولذلك فهو في كل تشريعاته يقصد إلىٰ اليسر ورفع الحرج عن الناس.

---

(١) رواه أبو داود (٣٤٦٠)، وابن ماجه (٢١٩٩).

الفصل العاشر

تيسير التفقه في الأحكام

إن هذا الدين قائم علىٰ العلم، ولذا كانت أول كلمة نزل بها الوحي من القرآن الكريم هي: ﴿ٱقْرَأْ﴾.

وجاء في الحديث الصحيح قوله ﷺ: (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[1].

وقد يسر الله تعالىٰ لعباده الفقه في الدين عن طريق وسائل شتىٰ، منها: التعلم لمن قصد ذلك، ومنها خطب الجمعة، ودروس الوعظ..

ومنها النشأة في المجتمع الإسلامي التي تهيئ للمسلم القدر الذي لا بد منه لأداء الواجبات، واجتناب النواهي.

ومنها: بقاء الفطرة سليمة في المجتمع

(١) رواه البخاري (٧١)، ومسلم (١٠٣٧).

الإسلامي، وهي عامل أمان في الاستقامة علىٰ الخير والبعد عن الشر. قال تعالىٰ: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الروم].

والذي أريد بيانه في هذا الفصل أن الذين لم يُتِحْ لهم وقتهم التفقه في الدين والتبحر في علومه، يسر لهم الإسلام ذلك، بوضع قواعد عامة بين أيديهم تساعد علىٰ سلوك الطريق المستقيم.

هذه القواعد، هي كمؤشر البوصلة الذي يساعد علىٰ معرفة الاتجاه، وأذكر علىٰ سبيل المثال القواعد الآتية:

• قال رسول الله ﷺ: (الحلال بيِّن، والحرام بيّن، وبينهما مشبَّهات لا يعلمها كثير من الناس، فمن اتقىٰ المشبَّهات استبرأ لدينه وعرضه)[١].

والحديث الشريف ينص علىٰ أن الحلال بيِّن واضح لكل الناس، وكذلك الحرام بيِّن واضح لكل

---

(١) رواه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

الناس، وهذان الطرفان من المعروف من الدين بالضرورة.

فكل الناس يعرفون أن: البيع، والزواج، وشرب الماء، وأكل الخبز.. حلال، ويعرفون: أن: الربا، والسرقة، والزنى، وشرب الخمر.. حرام.

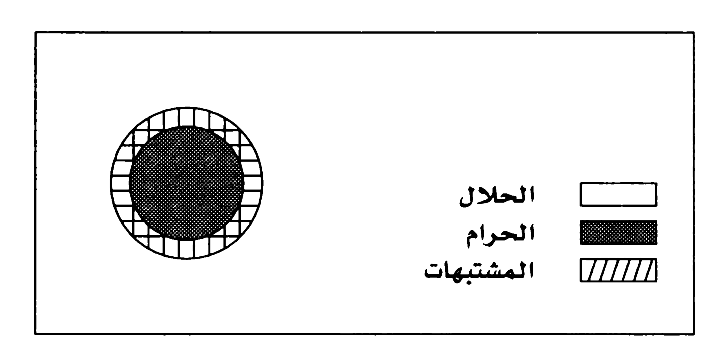
يساعد علىٰ معرفة هذين الطرفين: الفطرة السليمة، ونشوء المرء في مجتمع إسلامي.

ويبقىٰ قسم ثالث هو محل الإشكال وهو «المشبَّهات، أو المشتبهات» وهذه علىٰ الإنسان أن يسأل عنها أهل الذكر أو يجتنبها.

وإذا اجتنبها، فإنه يكون قد برَّأ دينه من النقص المحتمل.

فهذا الحديث معلم عظيم من معالم فقه الحلال والحرام، يستفيد منه العالم، وغير العالم. فما أظن أحداً يختلط عليه ما هو حلال معروف الحل، بما هو حرام معروف الحرمة. وإنما الإشكال في مساحة ضيقة محدودة.

وإذا أردنا أن نوضح معنىٰ الحديث بالرسم كان لدينا الشكل الآتي:



فاللون الأبيض ضمن المستطيل يمثل الحلال وهو أوسع وأكبر من الحرام بكثير.

واللون الأسود ضمن الدائرة يمثل الحرام الذي ينبغي اجتنابه، وهي مساحة صغيرة بالنسبة لمساحة الحلال غير المحدود، وذلك لأن الله حصر المحرمات وعددها بينما لم يفعل ذلك بشأن الحلال، قال تعالىٰ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾ [الأنعام: ١٥١]. فالأصل الحل. ولذا ذكر المحرمات..

وأما الدائرة المخططة المحيطة بالدائرة السوداء، فهذه الدائرة محل الاشتباه وهي التي لا يعلمها كثير

من الناس، فهنا ينبغي التريث وعدم الإقدام وسؤال أهل العلم..

ومع ذلك فالحديث يوجه إلىٰ الابتعاد عنها بقوله: (فمن اتقىٰ الشبهات، استبرأ لدينه وعرضه).

وأوضح أن الاقتراب من الشبهات، هو مظنة الوقوع فيها.

وخلاصة الأمر: أن هذا الحديث يبين أن الإنسان بفطرته يعرف الحلال ويعرف الحرام، وهذه المعرفة بحد ذاتها فقه كبير.

وهذا الفقه ميسر لكل الناس.. وتبقىٰ مهمة التطبيق.

• القاعدة الثانية نجدها في قوله ﷺ: (دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك)[1].

والريب: الشك. والمعنىٰ: اترك ما فيه شك في حله إلىٰ ما لا تشك فيه.

---

(١) رواه الترمذي (٢٥١٨)، والنسائي (٥٧٢٧)، والدارمي (٢٥٣٢).

والمراد: أن ما اشتبه حاله علىٰ الإنسان فتردد بين كونه حلالاً وبين كونه حراماً، فاللائق بحاله تركه والذهاب إلىٰ ما يعلم حاله ويعرف أنه حلال.

إنها قاعدة تؤكد القاعدة السابقة. وهي تيسر علىٰ الإنسان التعامل مع الأشياء عند الاشتباه بها. بل عدَّ بعضهم هذه القاعدة أصلاً في الورع.

قال حسان بن أبي سنان: ما رأيت شيئاً أهون من الورع (دع ما يريبك إلىٰ ما لا يريبك)[1].

● إن كل إنسان يملك بين جوانحه ميزاناً يعرف به البر من الإثم، والحلال من الحرام، وهذا أمر لا مراء فيه.

وهذا ما سجله وابصة بن معبد الأسدي رضي الله عنه بقوله:

إن رسول الله ﷺ قال له: (جئت تسأل عن البر والإثم؟)

قال: قلت: نعم.

---

(١) رواه البخاري معلقاً، كتاب البيوع (باب ٣).

قال: فجمع أصابعه فضرب بها في صدري وقال: (استفتِ نفسك، استفتِ قلبك يا وابصة) ثلاثاً.

ثم قال: (البر ما اطمأنت إليه النفس، واطمأن إليه القلب، والإثم: ما حاك في النفس، وتردد في الصدر، وإن أفتاك الناس وأفتوك)[1].

وهكذا يضع هذا الحديث ميزاناً لا يخطئ.

فإذا اطمأنت النفس إلىٰ الأمر، واطمأن إليه القلب، وكان الإنسان في راحة الضمير، فذلك هو البر وهو الخير.

وأما إذا كان في النفس منه شيء، والقلب غير مطمئن، فذلك هو الإثم حتىٰ ولو وجدت من يحلله لك.

وقد أضاف حديث النواس بن سمعان إلىٰ الإثم علامة أخرىٰ جاءت في قوله ﷺ: (الإثم ما حاك في صدرك، وكرهت أن يطلع عليه الناس)[2].

---

(١) رواه الدارمي (٢٥٣٣).

(٢) رواه مسلم (٢٥٥٣).

فإن عمل «البر» لا يكره الإنسان أن يراه الناس فيه، أما العمل الذي فيه شبهة فإن الإنسان لا يحب أن يراه الناس وهو يفعل ذلك.

وإذن ف«الإثم» له ثلاث علامات:

- أن يحيك في النفس، فلا تطمئن إليه.

- أن يتردد في الصدر، فلا يرتاح إليه القلب.

- أن يكره أن يطلع عليه الناس.

إنه ميزان القلب، وهو من أدق الموازين..

وهكذا نلاحظ أن التفريق بين «البر» و«الإثم» أمر ميسر لكل إنسان يمكنه أن يعرف به الحرام من الحلال، حتىٰ ولو لم يكن متعلماً أو فقيهاً.

● وجاء سفيان بن عبد الله الثقفي إلىٰ النبي ﷺ يسأله.. فقال: يا رسول الله، قل لي في الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحداً بعدك.

فقال ﷺ: (قل: آمنت بالله، فاستقم)[1].

---

(١) رواه مسلم (٣٨).

إن سفيان يريد قولاً يلخص له فيه رسول الله ﷺ الإسلام بكلمات وجيزة جامعة، يكون قادراً علىٰ حفظها نصاً، وتساعده علىٰ العمل بالإسلام تطبيقاً، فكان هذا الجواب ممن أوتي جوامع الكلم ﷺ جامعاً لا مزيد عليه.

إنهما عملان: الإيمان، وإذا تم الإيمان فتعقبه الاستقامة.

وهكذا يضع النبي ﷺ قاعدة أخرىٰ من قواعد الإسلام بين أيدي المسلمين تيسر لهم فقه هذا الدين.

إنه إرشاد إلىٰ الاستقامة علىٰ الطريق الذي جاء به الإسلام، كما قال تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٢].

إن الاستقامة أمر يعرفه الناس بفطرتهم، ولذلك يصفون بها من كان مطبقاً لها، فيقولون: فلان مستقيم.

وهكذا فالإنسان الذي يريد أن يقدم علىٰ القيام بعمل ما، يستطيع بفطرته أن يعرف هل هو داخلٌ في خط الاستقامة أو خارج عن هذا الخط.

❁ ❁ ❁

هذه نماذج من القواعد العامة التي تسهِّل علىٰ كل مسلم فقه الخطوط العامة في هذا الدين. فيعرف من خلالها: ما هو حلال، وما هو حرام.

وتبقىٰ طائفة مشتبهة، يستطيع الرجوع في معرفة حكمها إلىٰ أهل الذكر، أو يجتنبها مطمئناً علىٰ براءة دينه وعرضه، كما ورد في الحديث الصحيح السابق ذكره.

قال الإمام ابن رجب الحنبلي:

«ما ترك الله تعالىٰ ورسوله ﷺ حلالاً إلا مبيناً، ولا حراماً إلا مبيناً. لكن بعضه كان أظهر بياناً من بعض.

فما ظهر بيانه واشتهر، وعلم من الدين بالضرورة من ذلك، لم يبق فيه شك، ولا يعذر أحد بجهله، في بلد يظهر فيها الإسلام»[1].

---

(١) «جامع العلوم والحكم» (١/ ١١٠) مكتبة الباز.

الفصل الحادي عشر

التيسير غاية الأخلاق

إن النظام الإسلامي للأخلاق بمجمله موجه في مصلحة الآخرين، فالرجل الفاضل ذو الأخلاق الكريمة هو الذي يمنح المجتمع برَّه وعطفه وكرمه، فالآخرون هم المستفيدون من حسن أخلاقه، ابتداءً من ابتسامته التي يواجه بها الناس إلىٰ كرمه الذي يفرج به عن المكروبين.. إلىٰ مشيه مع الناس في قضاء حوائجهم.

وقد رأىٰ بعض العلماء: «أن أنفع العبادات وأفضلها ما كان فيه نفع متعدٍ، فرأوا خدمة الفقراء، والاشتغال بمصالح الناس وقضاء حوائجهم، ومساعدتهم بالمال والجاه.. هو الأفضل»[1].

---

(١) «مدارج السالكين»، للإمام ابن القيم (١/ ٨٧)، بتحقيق الفقي.

وهذا كله في حقيقته يصب في مساعدة الآخرين في تيسير أمورهم والتخفيف من معاناتهم.

وكل هذا من تطبيقات قوله ﷺ: (إن هذا الدين يسر).

ويحسن بنا أن نقف أمام بعض النصوص التي توضح لنا أن التيسير علىٰ الناس هدف من أهداف الأخلاق الكريمة، كما أنه هدف من العمل الذي يبتغىٰ به وجه الله تعالىٰ والدار الآخرة.

ومن ذلك قوله ﷺ:

(من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا، نفَّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة.

ومن يسَّر علىٰ معسر، يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة.

ومن ستر مسلماً، ستره الله في الدنيا والآخرة.

والله في عون العبد، ما كان العبد في عون أخيه..)[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٩٩).

وقوله ﷺ:

(إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي علىٰ الرفق ما لا يعطي علىٰ العنف، وما لا يعطي علىٰ ما سواه)[1].

وقوله ﷺ:

(وإرشادك الرجل في أرض الضلال لك صدقة، وبصرك للرجل الرديء البصر لك صدقة. .)[2].

وقوله ﷺ في جواب السائل عن أفضل الأعمال: (تعين صانعاً أو تصنع لأخرق)[3].

وقوله ﷺ:

(أحب الناس إلىٰ الله أنفعهم للناس.

وأحب الأعمال إلىٰ الله عز وجل سرور تدخله علىٰ مسلم، أو تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه ديناً، أو تطرد عنه جوعاً.

ولأن أمشي مع أخي المسلم في حاجة أحب إلي من أن أعتكف في المسجد شهراً. . .

---

(١) رواه مسلم (٢٥٩٣).

(٢) رواه الترمذي (١٩٥٦).

(٣) رواه البخاري (٢٥١٨)، ومسلم (٨٤).

ومن مشىٰ مع أخيه المسلم في حاجة حتىٰ يثبتها له، ثبت الله تعالىٰ قدمه يوم تزل الأقدام..)[1].

والأحاديث في هذا الباب كثيرة كثيرة، كلها تدعو إلىٰ مساعدة الآخرين وتيسير أمورهم، والتخفيف عنهم.. وبمثل هذه الأعمال يتحقق اليسر الذي أراده الله تعالىٰ أن يكون قائماً في حياة الناس، كما جاء ذلك في قوله تعالىٰ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥].

❋ ❋ ❋

وإذا كان الله تعالىٰ يريد بالناس اليسر، فإن من أراد بهم العسر استحق دعوته ﷺ حيث يقول:

(اللهم من ولي من أمر أمتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقق عليه)[2].

وإنه لأمر خطير أن يسير مسلم في غير ما

---

(١) «صحيح الجامع الصغير» (١٧٦)، وانظر: «مجمع الزوائد» (١٣٧٠٨).

(٢) رواه مسلم (١٨٢٨).

يحبه الله تعالىٰ، ولذلك كانت هذه الدعوة عليه من الرسول ﷺ، ودعاؤه مستجاب.

فالموظف الذي يأتيه صاحب الحاجة، وهو قادر علىٰ إنجاز عمله، ثم يطلب منه أن يأتيه في اليوم التالي فقد شقَّ عليه..

ينبغي أن تكون روح الرحمة والتيسير قائمة في حياة المسلم حتىٰ يكون كما أراد الله تعالىٰ.

الفصل الثاني عشر

التيسير عند الخطأ والنسيان

جعلت الشريعة مسؤولية الإنسان عن الفعل الذي يقوم به كاملة عندما يكون قاصداً إلىٰ ذلك الفعل.

ولكن الفعل عندما يصدر عن الإنسان دون قصد أو نيَّةٍ أو إرادة، فإن الشريعة لا تحمله تبعات هذا الفعل كاملة بل لها في ذلك تفصيل.

ويعدّ هذا من يسر الشريعة وسماحتها.

والميدان الأول لهذه القضية هو ما جاء تحديده في الحديث الشريف في قوله ﷺ: (إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[1].

وفي لفظ: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)[2].

❁ ❁ ❁

(١) رواه ابن ماجه (٢٠٤٣) وصححه الألباني.

(٢) رواه ابن ماجه (٢٠٤٥) وصححه الألباني.

ولا بد في البدء من بيان أن الفعل الواحد قد يتعلق به أمران:

ـ أمر باعتباره حقاً لله تعالىٰ.

ـ وأمر آخر باعتباره حقاً من حقوق العباد.

ولإيضاح هذا أضرب مثلاً علىٰ ذلك.

فلو أن إنساناً دهس بسيارة شخصاً خطأً، وعن غير قصد.

فنحن هنا أمام جريمة قتل، يرتبط بها حقان: أحدهما متعلق بالله تعالىٰ من حيث مخالفة الأمر الصادر عنه والذي ينهىٰ عن قتل النفس، والثاني يتعلق بحقوق ورثة المقتول.

أما حق الله، فقد جاء في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا﴾ [النساء: ٩٣].

وأما حق أولياء القتيل فهو القصاص من القاتل.

هذا عندما يكون فعل القتل عمداً عن إرادة وقصد.

أما عندما يكون خطأ، فإن الله تجاوز عن الخطأ، بمعنىٰ أنه سبحانه لا يجعل هذا الفعل ذنباً يعاقب عليه في الآخرة.

ولكن هذا التجاوز من قبل الله تعالىٰ لا يعفيه من حق ورثة المقتول. وهو الدية التي تدفعها عائلته وعصبته، وكفارة يقوم هو بأدائها.

* * *

بعد هذه المقدمة عن بيان حق الله وحق العباد، أقول: إن الحديث يحدد الحالات التي تجاوز الله عنها، بمعنىٰ أنه وضع العقوبة عن فاعلها، وهي ثلاث.

- حالة الخطأ.
- وحالة النسيان.
- وحالة الإكراه.

● فالخطأ: هو ما ليس للإنسان فيه قصد. أو أن يقصد بفعله شيئاً فيصادف غير ما قصده.

وحكمه: أنه عذر يرفع الإثم عنه، ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب عليه حكم..

فالإنسان الصائم في رمضان، والذي أثناء المضمضة في الوضوء، أخطأ فدخل في جوفه شيء من الماء.. فإنه لا إثم عليه من حيث إنه أفطر بدخول الماء إلىٰ جوفه، ولكنه يبقىٰ علىٰ صيامه، ويصوم يوماً آخر مكان هذا اليوم.

فالتجاوز من قبل الله تعالىٰ، هو في عدم معاملته معاملة المفطر عمداً. الذي يقول الرسول ﷺ في حقه: (من أفطر يوماً من رمضان في غير رخصة رخصها الله له، لم يقض عنه صيام الدهر، وإن صامه)[1].

والذي أتلف مال غيره خطأ، كمن ركب سيارته فلم يحسن تحريكها.. فأصاب سيارة جاره ببعض التلف..

فهذا الفعل أنتج ذنباً وهو التعدي علىٰ مال الغير، ويدخل فاعله في قوله ﷺ: (كل المسلم علىٰ المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه)[2].

---

(١) رواه أبو داود (٢٣٩٦)، والترمذي (٧٢٣)، وابن ماجه (١٦٧٢).

(٢) رواه مسلم (٢٥٦٤).

فالتعدي علىٰ المال ذنب يوجب المسؤولية أمام الله، وفاعله مرتكب إثماً، ولكن الأمر لما كان خطأ، فإن الله يتجاوز عنه في هذا الجانب.

وعليه أن يعوض جاره عن التلف الذي أصاب سيارته.

• والنسيان: هو الغفلة والسهو.

وحكمه شبيه بحكم الخطأ، مع شيء من التفصيل في بعض الأمور.

فالصائم الذي أكل أو شرب ناسياً، يتم صومه ولا يعيد صوم هذا اليوم، لقوله ﷺ: (إذا نسي فأكل وشرب فليتم صومه، فإنما أطعمه الله وسقاه)[١].

والصلاة لها وقت محدود ابتداءً وانتهاءً، وتأخيرها عن وقتها فيه إثم، ولكن هذا التأخير إذا كان نسياناً، فهو معفو عنه، ويصليها في الوقت الذي ذكرها فيه لقوله ﷺ: (من نسي صلاة، فليصل إذا ذكرها، لا كفارة لها إلا ذلك)[٢].

---

(١) رواه البخاري (١٩٣٣)، ومسلم (١١٥٥).

(٢) رواه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤).

وهكذا فالنسيان يدفع عن صاحبه الإثم.

● والإكراه، هو حمل الغير علىٰ ما يَكْرَهه بالوعيد. فيقدم علىٰ الفعل مع عدم الرضا، ليدفع ما هو أكثر ضرراً.

فهذا معفو عنه فيما كان في حق الله تعالىٰ.

كمن هُدد بالقتل إذا لم يشرب الخمر، فهذا لا إثم عليه إذا اضطر لذلك.

بل قد حصل لعمَّار بن ياسر رضي الله عنه أن عذبه المشركون حتىٰ يكفر بمحمد ﷺ فوافقهم علىٰ ذلك مكرهاً، وجاء معتذراً إلىٰ النبي ﷺ، فأنزل الله قوله تعالىٰ: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ ..﴾ [النحل: ١٠٦] وقد سأل النبي ﷺ عمار بن ياسر فقال: (كيف تجد قلبك؟) قال: مطمئناً بالإيمان، فقال النبي ﷺ: (إن عادوا فعد)(١).

هذا ما يتعلق بحق الله بشأن الإكراه، فهو معفو عنه.

---

(١) «تفسير ابن كثير» عند الآية المذكورة.

أما إذا أدىٰ الإكراه إلىٰ إتلاف مال غيره، فإنه يكون مسؤولاً عن تعويض ما أتلف، كما سبق في الخطأ، لكنه هنا يستطيع الرجوع بذلك علىٰ الذي أكرهه إذا سمح له الوقت بذلك.

* * *

والخلاصة: أنَّ من عظمة الإسلام. أن فتح باب التيسير في هذا الميدان، وراعىٰ حالة الإنسان عندما يقع في الخطأ والنسيان والإكراه.

وذلك سيراً مع الخط العام للإسلام في إشاعة اليسر ومراعاته في كل حالة من أحوال الإنسان. وبما يتناسب معها.

الفصل الثالث عشر

التيسير في أمر التوبة

التوبة: هي الرجوع إلىٰ الله تعالىٰ بالإخلاص له والإقلاع عن الذنوب.

قال تعالىٰ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ولقبول التوبة من حيث زمنها شرطان:

١ ـ أن تكون في حياة الإنسان، وأن لا تكون عند الغرغرة، عندما تبلغ الروح الحلقوم. قال ﷺ: (إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر)[١].

٢ ـ أن تكون قبل طلوع الشمس من مغربها، قال ﷺ: (من تاب قبل أن تطلع الشمس من مغربها، تاب الله عليه)[٢].

---

(١) رواه الترمذي (٣٥٣٧)، وابن ماجه (٤٢٥٣).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٣).

وإذا كانت العصمة قاصرة علىٰ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فكل إنسان بعدهم عرضة للوقوع في الذنوب والمعاصي، ولا مخرج من ذلك إلا عن طريق التوبة إلىٰ الله تعالىٰ.

وقد فتح ﷻ باب التوبة علىٰ مصراعيه، ليقبل إليه كل مذنب، ويسَّر للناس الدخول من هذا الباب.

وقد جاء التيسير في هذا الشأن بعدة أشكال، ومن جوانب متعددة، ومن المفيد ذكر بعضها.

• إن كل الذنوب قابلة للتوبة منها بغير استثناء، فمهما عظم الذنب فإن الله سبحانه يقبل التوبة منه، حتىٰ التوبة من الشرك، والتي تكون بالإيمان.

أما قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨] فهذا متعلق فيما إذا مات الإنسان علىٰ غير توبة مصراً علىٰ الشرك، فكل الذنوب قابلة للتوبة بمشيئة الله تعالىٰ غير الشرك.

أما المشرك والمرتد إذا رجع إلىٰ صوابه وآمن وذلك في حياته الدنيا فإن الله يقبل ذلك منه.

فهل هناك تيسير أكبر من هذا: أن تكون كل الذنوب قابلة للتوبة منها؟!.

• وهناك أمر أعظم من قبول التوبة، وهو الفرح بها، كما جاء ذلك في أحاديث كثيرة، منها ما رواه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

(للهُ أفرحُ بتوبة العبد، من رجل نزل منزلاً وبه مهلكة، ومعه راحلته، عليها طعامه وشرابه، فوضع رأسه فنام نومة، فاستيقظ وقد ذهبت راحلته، حتىٰ اشتد عليه الحر والعطش، أو ما شاء الله. قال: أرجع إلىٰ مكاني، فرجع فنام نومة، ثم رفع رأسه فإذا راحلته عنده)[1].

وفي رواية من حديث أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ:

(لله أشد فرحاً بتوبة عبده ـ حين يتوب إليه ـ من أحدكم كان علىٰ راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه، وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتىٰ شجرة

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤).

فاضطجع في ظلها، قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم، أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح)[١].

فهل هناك دعوة أرحب من هذه الدعوة إلىٰ التوبة والرجوع إلىٰ الله تعالىٰ.

● ومن تيسيره سبحانه أنه يقبل تكرر التوبة مرة بعد أخرىٰ.

فقد جاء في الصحيح عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل، قال:

(أذنب عبد ذنباً، فقال: اللهم، اغفر لي ذنبي.

فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب.

ثم عاد فأذنب، فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي.

فقال تبارك وتعالىٰ: عبدي أذنب ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٩)، ومسلم (٢٧٤٧).

ثم عاد فأذنب فقال: أي رب، اغفر لي ذنبي.

فقال تبارك وتعالىٰ: أذنب عبدي ذنباً، فعلم أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت، فقد غفرت لك)[1].

● وكثرة الذنوب ـ مهما عظمت ـ لا تحول دون التوبة، كما روىٰ ذلك أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

(كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ علىٰ راهب، فأتاه فقال: إنه قتل تسعة وتسعين نفساً فهل له من توبة؟ فقال: لا، فقتله فكمل به مائة.

ثم سأل عن أعلم أهل الأرض، فدُلَّ علىٰ رجلٍ عالمٍ، فقال: إنه قتل مائة نفس، فهل له من توبة؟.

فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة؟ انطلق إلىٰ أرض كذا وكذا، فإن بها أناساً يعبدون الله، فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلىٰ أرضك فإنها أرض سوء.

فانطلق، حتىٰ إذا نصف الطريق أتاه الموت.

فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب.

---

(١) رواه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم واللفظ له (٢٧٥٨).

فقالت ملائكة الرحمة: جاء تائباً، مقبلاً بقلبه إلىٰ الله.

وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيراً قط.

فأتاهم ملك في صورة آدمي، فجعلوه بينهم، فقال: قيسوا ما بين الأرضين، فإلىٰ أيتهما كان أدنىٰ، فهو له.

فقاسوا، فوجدوه أدنىٰ إلىٰ الأرض التي أراد، فقبضته ملائكة الرحمة)[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (لو أخطأتم، حتىٰ تبلغ خطاياكم السماء، ثم تبتم، لتاب عليكم)[2].

* * *

فهل هناك تيسير أكثر من هذا، وهل هناك سعة أكثر من ذلك..

وكيف لا يكون ذلك، ومن أسمائه ـ سبحانه وتعالى ـ: «التواب».

اللهم تب علينا، واغفر لنا، وارحمنا، فأنت أرحم الراحمين.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٢٤٨).

الفصل الرابع عشر

السماحة في حساب الحسنات والسيئات

ولعل أعظم أبواب التيسير والسماحة في هذا الدين، ما جاء به من اليسر والتسامح بشأن حساب الحسنات والسيئات، والتي علىٰ أساسها يكون نجاح العبد أو إخفاقه في يوم الحساب.

وقد جاء هذا علىٰ لسان الصادق المصدوق ﷺ في أحاديث:

• منها: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أحسن أحدكم إسلامه، فكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها، إلىٰ سبعمائة ضعف. وكل سيئة يعملها تكتب له بمثلها)[1].

• ومنها: عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ،

---

(١) رواه البخاري (٤٢)، ومسلم (١٢٩).

فيما يرويه عن ربه ﷻ قال: (قال: إن الله كتب الحسنات والسيئات، ثم بيّن ذلك:

فمن همَّ بحسنة فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة.

فإن هو همَّ بها وعملها، كتبها الله له عنده عشر حسنات، إلىٰ سبعمائة ضعف إلىٰ أضعاف كثيرة.

ومن هم بسيئة، فلم يعملها، كتبها الله له عنده حسنة كاملة.

فإن هو همَّ بها فعملها كتبها الله له سيئة واحدة)[1].

- ومنها: عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (يقول الله: فاكتبوها بمثلها، وإن تركها من أجلي، فاكتبوها له حسنة.

وإذا أراد أن يعمل حسنة، فلم يعملها، فاكتبوها له حسنة، فإن عملها فاكتبوها له بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف)[2].

* * *

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١).

(٢) رواه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٩).

يتبين من مجموع هذه الأحاديث الصحيحة:

١ ـ أن السيئة لا تكتب علىٰ الإنسان إلا إذا عملها.

وإذا عملها فإنها تكتب سيئة واحدة.

فإذا همَّ بالسيئة ثم تركها لله فإنها تكتب حسنة.

٢ ـ أن الحسنة إذا همَّ بها صاحبها ـ ولم يعملها ـ كتبت له حسنة.

فإذا عملها كتبت له بعشر أضعافها إلىٰ سبعمائة ضعف..

فهل هناك سماحة أعظم من ذلك، وهل هناك تيسير أكبر من ذلك: أن يتحول ترك السيئة إلىٰ حسنة، وأن يكون الهمَّ بالحسنة حسنة، وأن تكون الحسنة بعشر أمثالها.

إنه فضل الله وكرمه ورحمته سبحانه وتعالى.

* * *

ومن السماحة أيضاً في حساب الحسنات: أن الإنسان عندما يسلم يكون حساب الحسنات والسيئات التي صدرت منه قبل إسلامه لصالحه.

أما السيئات، فإنها تمحىٰ عنه لأن الإسلام يَجُبُّ ما قبله.

وأما الحسنات فإنها تسجل له في سجل حسناته.

قال حكيم بن حزام رضي الله عنه للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت أشياء. كنت أتحنث[1] بها في الجاهلية، من صدقة، أو عتاقة وصلة رحم، فهل فيها من أجر؟ فقال النبي ﷺ: (أسلمتَ علىٰ ما سلفَ من خير)[2].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إذا أسلم العبد فحسن إسلامه، كتب الله له كل حسنة كان أزلفها[3]، ومحيت عنه كل سيئة كان أزلفها، ثم كان بعد ذلك القصاص: الحسنة بعشر أمثالها إلىٰ سبعمائة ضعف، والسيئة بمثلها، إلا أن يتجاوز الله عز وجل عنها)[4].

* * *

وبعد فليتأمل المسلم هذه السماحة التي أعدها الله ليكون الحساب علىٰ أساسها، فهل يتصور سماحة مثلها أو تيسير مثله.. فليسارع إلىٰ الخيرات.

---

(١) أتحنث: المراد هنا: العبادة: أي أتعبد بها.
(٢) رواه البخاري (١٤٣٦)، ومسلم (١٢٣).
(٣) أزلفها: أي أسلفها وقدمها.
(٤) رواه النسائي (٥٠١٣)، والبخاري تعليقاً (٤١).

الفصل الخامس عشر

وتيسير الطرقات.. أيضاً

كانت تلك جولة في رياض الإسلام، وكان المرشد السياحي فيها «التيسير» حيث تعرفنا بواسطته علىٰ بعض المعالم التابعة له.

وكان طريقنا معبداً نظيفاً الأمر الذي أضفىٰ علىٰ هذه السياحة السعادة والسرور.

وهكذا هي الطرقات في ديار المسلمين، يسهل السير فيها، فهي خالية من العوائق.. وما ذاك إلَّا بفضل تعاليم الإسلام ـ التي شملت بيسرها.. حتىٰ تيسير الطرقات للسالكين.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: قال رسول الله ﷺ: (بينما رجل يمشي بطريق، وجد غصن شوك علىٰ الطريق فأخره، فشكر الله له، فغفر له).

وفي رواية: (لقد رأيت رجلاً يتقلب في الجنة

في شجرة قطعها من ظهر الطريق كانت تؤذي الناس)[1].

وقال أبو برزة ﷺ: قلت: يا نبي الله، علمني شيئاً أنتفع به، قال: (اعزل الأذىٰ عن طريق المسلمين)[2].

وفي حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال ﷺ: (وتميط الأذىٰ عن الطريق صدقة)[3].

وفي حديث أبي ذر ﷺ، عن النبي ﷺ قال: (وإماطتك الحجر والشوك والعظم عن الطريق لك صدقة)[4].

بمثل هذه التوجيهات النبوية الكريمة، أصبحت الطرق ميسرة ليسير الناس فيها براحة ويسر، فكل مسلم بعد سماعه هذه الأحاديث يكون حريصاً علىٰ أن يزيل من طرقات المسلمين ما يعرقل سيرهم أو يؤذيهم.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢)، ومسلم (١٩١٤م).
(٢) رواه مسلم (٢٦١٨).
(٣) رواه مسلم (٧٢٠).
(٤) رواه الترمذي (١٩٥٦).

وإذا كان هذا ما يحض عليه الإسلام، فإنه يكره من المسلم أن يلقي في الطريق ما يعرقل السير فيها أو يكون سبباً في توسيخها وعدم نظافتها.

* * *

ومن هذا المنطلق، فهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن من واجب الدولة المسلمة تعبيد الطرقات وتنظيفها ليسهل علىٰ المسلمين استخدامها وقضاء حوائجهم بيسر وسهولة..

ومن هذا الفهم كانت كلمته المشهورة: «لو أن سخلة تعثرت علىٰ شاطئ الفرات، لكان عمر مسؤولاً عنها، لِمَ لَمْ يعبد لها الطريق».

هذا في حق السخلة، فكيف بالإنسان؟!.

وقد أصبحت هذه القضية واجباً من واجبات الخليفة، وواجباً ـ أيضاً ـ من واجبات الولاة.

عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه، أنه قال حين قدم البصرة: بعثني إليكم عمر بن الخطاب: أعلمكم

كتاب ربكم، وسنتكم، وأنظف طرقكم[1].

* * *

وهكذا يسر الإسلام الطرقات للسير، كما يسر كل الأمور الأخرىٰ التي سبق ذكرها..

ذلك أن هذا الدين حيثما وجد فثمَّ اليسر.

---

(١) «سنن الدارمي» (٥٦٠).

الخَاتِمَة

وَبَعد:

فهذا هو الإسلام، دين اليسر والسماحة، يصبغ معتنقيه بصبغته، فالمؤمن: هين لين، غر كريم، يألف ويؤلف..

بهذا وصفته الأحاديث الشريفة.

والمسلم في المجتمع الإسلامي لا يحتاج إلىٰ مواصفات كثيرة حتىٰ يثبت هويته. وإنما هو كما قال ﷺ:

(من صلىٰ صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم، الذي له ذمة الله[1] وذمة رسوله، فلا تُخْفِروا[2] الله في ذمته)[3].

---

(١) ذمة الله: أي أمانته وعهده.
(٢) تخفروا: أي تغدروا.
(٣) رواه البخاري (٣٩١).

ولكن بعضهم لا يعدّ ذلك كافياً، بل يضيف إلىٰ ذلك مواصفات أخرىٰ في الاعتقاد وغيره. .

وغريب أن لا يكتفي المسلم بما اكتفىٰ به رسول الله ﷺ، ويذهب في التشديد الذي نهىٰ عنه ﷺ كما سبق ذكر ذلك.

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته علىٰ الذين من قبلنا، ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا.

وصلىٰ الله علىٰ سيدنا محمد وعلىٰ آله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين.

المُحْتَوىٰ

الموضوع	الصفحة